الفصل الثالث

خطاب الاستفهام في الحديث الشريف

الفصل الثالث

خطاب الاستفهام في الحديث الشريف

الاستفهام لون من ألوان التعبير، ينقل أدق المشاعر وأعمق الأحاسيس، ويبث أخفى الخواطر والهواجس، باعثاً في نفس المتلقي شتى الإيحاءات المتوهجة المتداخلة، فيحس نبض الكلمات وحرارة الانفعالات في التعبيرات التي تنتفض حياة متدفقة.

وهو أسلوب لا يعتمد المنهج العقلي المجرد حسب، بل يغلب عليه إثارة العواطف وشحن الوجدان، وإدامة التواصل بين المتكلم والمخاطب. ولاشك إن الاستفهام النبوي وسيلة ناجعة تعالج عالم الإنسان المسلم الداخلي والخارجي والمواقف التي يمر بها ويتعامل معها بما يحمل من معان ودلالات تلتف بغلالته الشفافة.

الاستفهام في اللغة والاصطلاح

جاء في لسان العرب: استفهمه سأله إن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً[1] .

وجاء في مفردات الراغب: " الاستفهام ان يطلب من غيره ان يفهمه " [2].

وقد ورد ان الاستفهام والاستخبار والاستعلام واحد. وان هذه السين تفيد الطلب[3]. وفرق بعضهم بين هذه الألفاظ، فقالوا ان الاستخبار ما سبق أولاً ولم يفهم حق الفهم، فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً[4].

(1) اللسان (فهم): 357/15 ؛ الصحاح: 2005/5 .
(2) معجم مفردات ألفاظ القرآن: 400 .
(3) شرح المفصل: 150/8 ؛ الامالي الشجرية، ابن الشجري: 262/1 .
(4) الصاحبي: 181 ؛ البرهان: 326/2 ؛ معترك الأقران: 431/1 ؛ الإتقان: 79/2 .

ولكن الشائع في الدراسات البلاغية مصطلح الاستفهام[1].

والاستفهام: هو طلب المتكلم من مخاطبه ان يحصل في ذهنه ما لم يكن حاصلاً عنه مما سأله عنه[2].

وعرفه البلاغيون بأنه: طلب المراد من الغير على جهة الاستعلام[3].

او بعبارة أخرى: هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة خاصة[4] والتعريف الأخير يمزج بين بعض خصائص الاستفهام الدلالية وبعض سماته التركيبية[5].

وقد بين السكاكي الفرق بين الطلب في الاستفهام والطلب في غيره من الأساليب، بقوله: " والفرق بين الطلب في الاستفهام والطلب في الأمر والنهي والنداء، واضح، فأنك في الاستفهام تطلب ما هو في الخارج ليحصل في ذهنك نقش له مطابق، وفيما سواه تنقش في ذهنك ثم تطلب ان يحصل له في الخارج مطابق، فنقش الذهن في الأول تابع، وفي الثاني متبوع " [6] . وبما ان الاستفهام طلب ما في الخارج ليحصل في الذهن، لزم ألا يكون حقيقياً إلا إذا صدر من شاك مصدق بإمكان الإعلام، وان غير الشاك إذا استفهم يلزم تحصيل الحاصل، وإذا لم يصدق بإمكان الإعلام انتفت فائدة الاستفهام[7] .

(1) معجم المصطلحات البلاغية: 181/1 .
(2) الأشباه والنظائر: 2/4 ؛ التعريفات: 12 ؛ البرهان: 326/2-327 .
(3) الطراز: 286/3 ؛ المصباح في علم المعاني: 42 .
(4) أساليب بلاغية: 118 ؛ علم المعاني، درويش الجندي: 42 ؛ البلاغة الاصطلاحية: 163 .
(5) الأنماط التحويلية في الجملة الاستفهامية العربية، د. سمير شريف ستيتية، مجلة المورد، المجلد 18، العدد الأول، 1989، ص 32 .
(6) مفتاح العلوم: 146 .
(7) البرهان: 326/2-327 .

أدوات الاستفهام في الحديث الشريف ودلالاتها

وهي نوعان: الأول، حرفان وهما الهمزة وهل.

والثاني، أسماء، وهي كثيرة سنأتي على ذكرها لاحقاً.

وقد يراد بالاستفهام التصديق وهو إدراك النسبة أي تعيينها مثل: أقام محمد؟ والجواب يكون بـ (نعم) او (لا). وتستعمل الهمزة وهل لطلب التصديق.

وقد يراد بالاستفهام التصور، وهو إدراك المفرد، مثل: أقام محمد أم قعد؟ ومثل، من جاء؟ والجواب يكون بتحديد المفرد وهو (قام) في المثال الأول و (محمد) في المثال الثاني. وتستعمل لغرض التصور الهمزة وأسماء الاستفهام كلها[1].

وأدوات الاستفهام المستعملة في الحديث الشريف هي:

الهمزة و هل و أين و من و ما و أي و كم و متى و لعل و مهيم.

الهمزة: وهي من أكثر أدوات الاستفهام استعمالاً في الحديث النبوي كقوله ﷺ طالباً التصديق[2]:

" أَكُلُّ تمرِ خَيبرَ هكذا؟ " [3].

وقوله ﷺ لرجلٍ:

" أَصَلَّيْتَ يا فُلانُ؟ " [4].

وقد تأتي الهمزة للتصور في عدد قليل من الأحاديث كقوله ﷺ عندما يؤتى اليه بطعام:

" أَهَدِيةٌ أم صَدَقَةٌ؟ " [5].

---

(1) ينظر موضوع الاستفهام في مفتاح العلوم: 148 ؛ الأيضاًح 131/1 ؛ التلخيص: 153 .

(2) والأمثلة على ذلك كثيرة لا يمكن حصرها، ينظر على سبيل المثال: فتح الباري 620/1، 727؛ 13/2، 517، 592؛ 124/3، 231؛ 21/4، 240، 246؛ 442/4، 501؛ 134/5، 145، 254، 313؛ 172/6، 338، 365؛ 382/7؛ 79/8، 133؛ 173/9، 494 000 الخ .

(3) فتح الباري: 503/4 .

(4) نفسه: 517/2 .

(5) نفسه: 254/5، 448/6 .

هل: ورد الاستفهام بـ (هل) كثيراً في الحديث الشريف كقوله ﷺ لعائشة (رضي الله عنها):

" هل عندَكم شيء؟ " أي من الطعام. فقالت عائشة: لا ... " [1].

وقوله ﷺ لاعرابي سأله عن الهجرة.

" وَيْحَكَ، انَّ شأنَها شديدٌ، فهل لكَ من ابلٍ تُؤدِّي صدَقَتها؟ قال: نعم ... " [2].

والمراد في هذا الاستفهام التصديق.

أما أسماء الاستفهام التي يراد بها التصور فهي:

ما: يستفهم به عن غير العاقل كقوله ﷺ:

" ما هذا الحبلُ؟ قالوا: هذا حبلٌ لزبيبَ " [3].

وقال ﷺ عندما رأى نيراناً توقَدُ يومَ خَيْبرَ:

" عَلامَ تُوقَدُ هذه النيران؟ " [4].

وقال ﷺ لرجل سأله عن الساعة:

" وماذا أعْدَدْتَ لها؟ " قال: لا شيء الاّ أني أحبُّ اللهَ ورسولَهُ ﷺ " [5]

من: للاستفهام عن العاقل، كقوله ﷺ:

" مَنِ المتكلِّمُ؟ قال: أنا " [6].

---

(1) نفسه: 454/3 .

(2) نفسه: 402/3-403، ولمزيد من الأحاديث ينظر، فتح الباري: 588/4 ؛ 23/6، 66، 457، 757 ؛ 21/7، 410، 453؛ 316/8، 504؛ 96/9، 280، 486؛ 569/11؛ 158/12، 542 ؛ 419/13 .

(3) نفسه: 45/3 .

(4) نفسه: 153/5 .

(5) نفسه: 51/7، وللمزيد ينظر، فتح الباري: 152/3، 263، 780 ؛ 96/4، 190، 229، 408 ؛ 27/5، 95، 161 ؛ 303/6، 510؛ 661/7 ؛ 392/8 ؛ 191/10، 396؛ 566/11 .

(6) نفسه: 362/2 .

و " مَن هذهِ؟ فقالوا: ابنةُ عمرٍو ... " [1].

أي: للسؤال عما يميز احد المتشاركين في أمر يعمهما، كقوله ﷺ: للغلامين الذين قتلا أبا جهل: " أيُّكما قتله؟ قال كلٌّ واحدٍ منهما: أنا قتلته " [2].

وقوله: " أيُّ يومٍ هذا؟ قالوا: يومٌ حرام " [3].

أين: للسؤال عن المكان كقوله ﷺ:

" أين كنتَ يا أَبا هُريرةَ؟ " [4].

وقوله لفاطمة (رضي الله عنها):

" أينَ ابنُ عَمِّكِ؟ " [5].

كيف: للسؤال عن الحال كقوله ﷺ لجابر بن عبد الله رضي الله عنه:

" كيفَ تَرى بَعيرَك؟ " [6].

وقوله ﷺ لعبد الله بن عمرو:

" كيف تصوم؟ ... وكيف تَخْتم؟ " [7].

كم: للسؤال عن العدد كقوله ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه:

" في كم تقرأ القرآنَ؟ " [8].

متى: للسؤال عن الزمان كقوله ﷺ:

" يا عائشة متى عهِدْتِني فاحشاً؟ " [9].

أنى: تستعمل تارة بمعنى (متى)، وتارة بمعنى (من أين)، وتارة بمعنى (كيف).

وقد استعملت مرة واحدة في صحيح البخاري بمعنى (من اين)، إذ أتى النبي أعرابي فقال: " ان امرأتي ولدت غلاماً اسودَ وإني أنكرته، فقال له رسول الله: هل

---

(1) نفسه: 209/3، وللمزيد ينظر، فتح الباري: 605/1 ؛ 36/3 ؛ 446/4 ؛ 178/5، 311 ؛ 66/6، 463 ؛ 50/7، 589 ؛ 210/10 .

(2) نفسه: 303/6 .

(3) نفسه: 731/3، للمزيد ينظر: 418/3 ؛ 258/4 ؛ 446/6 ؛ 476/7، 589 ؛ 313/11، 378، 405 ؛ 270/12 ؛ 521/13، 571 .

(4) نفسه: 513/1 .

(5) نفسه: 704/1، للمزيد ينظر: 219/2، 234/3، 326 ؛ 385/5 ؛ 38/6، 61 ؛ 518/7 ؛ 708/8 ؛ 805/9 ؛ 339/10، 407، 704 ؛ 339/11 .

(6) نفسه: 68/5 .

(7) نفسه: 116/9، وللمزيد ينظر: 245/1: 245/1 ؛ 42/2 ؛ 339/5 ؛ 607/6 ؛ 553/7 .

(8) نفسه: 116/9، وللمزيد ينظر: 108/2 ؛ 503/7 .

(9) نفسه: 555/10 .

لكَ من أبلٍ؟ قال: نعم. قال: فما ألوانها؟ قال: حُمْرٌ. قال: هل فيها من أوْرَق؟ [1] قال: ان فيها لورقاً. قال: " فأنّى ترى ذلك جاءَها؟ ... " [2].

أما (أيّان) فلم ترد في الصحيح

هذا هو المشهور من أدوات الاستفهام عند البلاغيين.

وهناك أداتا استفهام لم يشر إليهما البلاغيون ووردتا في الحديث الشريف وهما: مهيم ولعل.

مَهْيَمْ: وهي كلمة يمانية[3] معناها ما الخبر؟ او ما الأمر؟ [4].

وقال صاحب اللسان: معناها ما هذا الذي أرى بك[5]. وقال الجوهري: معناها ما حالك؟ وما شانك؟ [6].

وقد وردت هذه الكلمة في الصحيح مرة واحدة في قوله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف ﷺ عندما رآه وعليه اثر من صفرة:

(1) الاورق من الإبل: إذا كان لونه اسود يخالطه بياض . اللسان (ورق): 256/12 .
(2) فتح الباري: 366/13-367 .
(3) النهاية: 378/4 .
(4) الكامل، المبرد: 356/3 ؛ النهاية: 378/4 .
(5) اللسان: 42/16 .
(6) الصحاح: 2038/5 .

" مَهْيَمْ؟ قال: يا رسول الله تزوجتُ امرأةً من الأنصار " [1].

أما (لعلّ) فقد وردت في الحديث الشريف مرات عديدة تدل على الاستفهام وقد ذكر السيوطي نقلاً عن التنوخي[2] ان (لعل) تكون للاستفهام[3] .

من ذلك قوله ﷺ لرجل من الأنصار، وقد خرج اليه ورأسه يَقطرُ:

" لعلَّنا أَعْجَلْناكَ؟ " [4].

وقال أيضاً لعائشة (رضي الله عنها) في الحج:

" لَعَلّكِ نُفِسْتِ؟ " [5] .

وقال لكعب بن عجرة ﷺ:

" لَعَلّكَ آذاك هَوَامُّك؟ قال: نعم يا رسول الله " [6][7].

ان استخدام (لعل) لغرض الاستفهام يشكل ظاهرة ملموسة في الحديث الشريف. ويلحظ ان استعمال (لعل) في الحديث يكون في المواقف التي يرجح فيها رسول الله كون الجواب فيها بالإثبات أي بـ (نعم).

ويلحظ أيضاً ان الاستفهام بـ (لعل) يشي بنوع من الإشفاق على المخاطب من المكروه، وذلك لبقاء تحمل (لعل) لهذه الدلالة، فقد نقل صاحب الارتشاف: " لعل للترجي في المحبوب وللإشفاق في المحذور " [1] .

---

(1) فتح الباري: 362/4 .
(2) وهو داود بن الهيثم بن إسحاق الانباري (ت316هـ)، لغوي نحوي، له كتاب في النحو على مذهب الكوفيين . الاعلام، الزركلي: 11/3 .
(3) الإتقان: 81/2 ؛ وينظر: الصاحبي: 170 ؛ حروف المعاني، الزجاجي: 30 ؛ مغني اللبيب 288/1 .
(4) فتح الباري: 376/1، وذكر الكرماني ان (لعل) هنا تفيد التحقيق أي قد اعجلناك . شرح الكرماني: 19/3 . أما البصريون فإن (لعل) في الحديث عندهم للإشفاق . ينظر: الصاحبي 170 ؛ الجنى الداني: 528 .
(5) فتح الباري: 536/1-537 .
(6) نفسه: 15/4 .
(7) للاستزادة ينظر، فتح الباري: 553/7 ؛ 616/10 ؛ 163/12 .

الاستفهام المحذوف الأداة:

من الظواهر التي نلحظها في أسلوب الاستفهام ظاهرة الحذف، وذلك لأن الاستفهام أسلوب خطاب يقوم على الاختصار بتوفر قرينة تدل على المحذوف، وهي قرينة النغمة في الكلام التي تؤدي معنى الاستفهام، فالنغمة هي الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق والعربية كغيرها من اللغات تعتمد على التنغيم في نقل المعنى، فالهيكل التنغيمي الذي تأتي به الجملة الاستفهامية او جملة العرض غير الهيكل التنغيمي لجملة الإثبات، وهن يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكدة، فلكل جملة من هذه صيغة تنغيمية خاصة، تعين على الكشف عن معناها اللغوي[2]. ويؤكد أحد الباحثين هذا في معرض تمييز الجمل الخبرية من الإنشائية، قائلاً: " ويعزى هذا النوع من الفرق التنغيمي الى عملية النطق وليس الى بنية الجملة في حد ذاتها " [3].

ويزيد باحث آخر على ذلك فيجعل النغمة الصوتية أصلاً في اللغة المنطوقة، واللغة المنطوقة أصل اللغة، شانها في أداء المعنى شأن الأداة وفعل النداء، فالكل عناصر تقع في موقعها أصالةً وليس نيابة عن غيرها[4] .

ويقدر النحاة الهمزة عند الحذف لأنها أم باب الاستفهام، ولا يقدر عند الحذف سواها[5]. أما (هل) فلا تحذف خشية اللبس وعدم وضوح المراد بالسؤال عند حذفها، لأن لها معنى خاصاً في الجملة الاستفهامية، وهو الاستفهام عن النسبة وكذلك الحال في بقية أدوات الاستفهام، لأن المسؤول عنه بها إنما هو منها، ومدلول لها، فإذا حذفت ضاعت الدلالة وذهب الاستفهام[6].

واختلف النحاة في ظروف حذف همزة الاستفهام، فقد حصر سيبويه جواز حذفها بضرورة الشعر[7]، واشترط أكثر البصريين لجواز حذفها ان يكون في الكلام

---

(1) ابو حيان الأندلسي: 130/2 ؛ وينظر: مغني اللبيب: 287/1 ؛ شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهري: 203/1 .
(2) اللغة العربية معناها ومبناها: 226 .
(3) اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة عباس صادق: 151 ؛ علم اللغة العام – الأصوات – د. كمال محمد بشر: 163 .
(4) في التحليل اللغوي: د. خليل عمايرة: 148 .
(5) الكتاب: 174/3-175 ؛ الكامل: 177/3-178 ؛ مغني اللبيب 14/1 ؛ همه الهوامع: 69/2 .
(6) في التحليل اللغوي: 147 ؛ في النحو العربي، نقد وتوجيه: 276 ؛ البلاغة العربية في ثوبها الجديد 920 .
(7) الكتاب: 174/3 ؛ الكامل: 178/3 .

ما يدل عليها، ولا سيما وجود (أم) المعادلة لها[1]، واستشهدوا بقول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

لعـــــمرك ما ادري وان كنتُ داريا بســـــبعٍ رَمَين الجمر أم بثمان؟ [2].

أراد أبسبعٍ؟

وأجاز بعضهم حذف همزة الاستفهام سواء وجد في الكلام ما يدل عليها أم لم يوجد[3].

والشواهد في الحديث الشريف تؤيد صحة ما ذهب اليه هؤلاء النحاة، فالحذف الذي ورد في الأحاديث التي سنعرض لها جاء غير مشروط بوقوع (أم) بعد الهمزة، وربما كان التنغيم قرينة وعنصر كشف عن المعنى، فالاستفهام يكون بنغمة صوتية صاعدة في حين تكون الجملة الخبرية بنغمة صوتية مستوية[4].

وعلى أية حال فإن حذف أداة الاستفهام واقع في لغة العرب، ومن جهة أخرى يعذر من حافظ على ذكر الأدوات باطراد لأن التراث مكتوب تتضح فيه العلاقات بالأدوات، وليس منطوقاً تتضح فيه العلاقات بالنغمات.

ومن هذا النوع في الحديث الشريف قوله ﷺ لكعب بن عجرة إذ قال: وقف علي رسول الله ﷺ بالحديبية، ورأسي يتهافت قملاً، فقال:

" يُؤذِيكَ هَوامُّكَ؟ [5] قلت: نعم. قال: فاحلِقْ رأسَكَ " [6] .

وقال جابر بن عبد الله ﷺ سألني رسول الله ﷺ:

" تزوَّجتَ؟ قلت: نعم. قال: بِكراً ام ثَيِّباً؟ قلت: بل ثَيِّباً " [7].

وقوله ﷺ عندما بلغه قول سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصفح، فبلغ ذلك رسول الله فقال:

" تعجبونَ من غَيرةِ سعدٍ؟ والله لأنا أغيرُ منه، واللهُ أغيرُ مني 000 " [8].

ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو ﷺ:

" أنتَ الذي تقول: واللهِ لأصومَنَّ النهارَ ولأقومنَّ الليلَ ما عِشتُ 000 " [9].

---

(1) المحتسب، ابن جني: 50/1 ؛ شرح المفصل: 154/8-155 ؛ إعراب القران، النحاس: 259/1 .
(2) ديوان عمر بن أبي ربيعة: 399 .
(3) الخصائص: 281/2 ؛ مغني اللبيب: 14/1 .
(4) في التحليل اللغوي: 149 .
(5) الهامة: الدواب يريد القمل . اللسان (هوم): 108/16 .
(6) فتح الباري: 19/4 .
(7) نفسه: 402/4 .
(8) نفسه: 492/13 .
(9) نفسه: 560/6 .

فالأحاديث المذكورة جاء الاستفهام فيها محذوف الأداة اختصاراً وسهولة بدلالة النغمة الصوتية والسياق عليه. فمن المؤكد ان النغمة الصوتية الصاعدة للرسول الكريم ﷺ في هذه الأحاديث هي التي حولت معنى الجملة الى الاستفهام.

والشواهد في الحديث الشريف على ذلك كثيرة[1]، حتى انها لتشكل ظاهرة أسلوبية ملحوظة في الاستفهام النبوي. كما ان أكثر الأحاديث التي وردت بحذف أداة الاستفهام كان يراد بالاستفهام دلالته الحقيقية.

معاني الاستفهام في الحديث الشريف

الأصل في الاستفهام- كما بينا – ان يقع من السائل طلب الفهم، إذا كان جاهلاً لما يسأل عنه، وقد يكون السائل عالماً بما يسأل عنه، فيكون السؤال منه من قبيل المجاز، ويسمى تعدي الاستفهام عن حدود الحقيقة (اعناتاً) [2]، وسماه ابن المعتز (تجاهل العارف) [3].

وبذلك يكون الاستفهام في الكلام حقيقياً يتوخى صاحبه معرفة ما يجهله، او بلاغياً يقصد به معنى من المعاني التي يخرج اليها، ويفهم هذا المعنى من السياق وقرائن الأحوال، إذ " لا يمكن فهم أية كلمة على نحو تام بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها والتي تحدد معناها " [4].

وقبل ان نتطرق الى معاني الاستفهام في الحديث الشريف لابد ان نشير الى ان خروج الاستفهام عن حقيقته واستعماله في معان أخر أثار جدلاً ونقاشاً عند المفسرين والنحاة والبلاغيين، حول ما إذا بقي معنى الاستفهام موجوداً فيه، ام انه تجرد عنه بالكلية في حال خروجه الى معنى آخر؟ [5].

فمن المفسرين والنحاة من يذهب الى ان من أدوات الاستفهام ما تتجرد من معنى الاستفهام بالكلية إذا استعملت في معنى التحقيق او التقرير او التسوية او النفي[6] . وقسم آخر يرى ان بعض المعاني التي يخرج فيها الاستفهام عن حقيقته

(1) ينظر، فتح الباري: 559/2 ؛ 280/3، 297، 394، 723، 748؛ 19/4، 291؛ 250/5؛ 466/7، 632؛ 283/8، 461؛ 77/9، 129، 682؛ 191/10، 346؛ 283/12، 246؛ 492/13.
(2) المصباح في علم المعاني: 44 ؛ عروس الأفراح – شروح التلخيص: 306/2 .
(3) البديع: 62 .
(4) اللغة والمعنى والسياق: 83 .
(5) ينظر تفصيل ذلك في: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: 414-418 .
(6) ينظر: مجاز القرآن، ابو عبيدة: 287/1، 149/2، 279 ؛ الكشاف: 252/1-253 ؛ المقتضب: 289/3، 43/1-44 .

تتجرد من الاستفهام بالكلية، وبعضها يبقى معنى الاستفهام قائماً فيها، ومنها ما يحتمل هذا او ذاك، ويعرف ذلك بالتأمل[1].

اما البلاغيون ومنهم السبكي فيرون ان معنى الاستفهام موجود باقٍ في أكثر المعاني والأغراض التي يخرج اليها الاستفهام[2].

وهذا اقرب الى الصواب، فليس هناك استفهام يفيد التقرير او التحقيق مثلاً، ويكون خبراً محضاً متجرداً من الاستفهام بالكلية، فلابد ان هناك فرقاً واضحاً بين قوله تعالى (هل اتى على الإنسان حين من الدهر) [3] وبين (قد اتى على الإنسان حين من الدهر). ان سبب هذا الفرق يعود الى ان معنى الاستفهام موجود في الآية، وانضم اليه معنى التحقيق[4].

المعاني الأولى (الحقيقية)

على الرغم من عناية البلاغيين ببيان وجوه المعاني الثواني التي تخرج اليها الأساليب الطلبية، وتحديد تلك الدلالات المستقاة من مناسبة النص وسياقاته، إلا ان البحث لم يجد مناصاً من الوقوف عند المعاني الحقيقية للتراكيب الطلبية، وهي ما تعرف بالمعاني الأول، وذلك لأن أداء التراكيب على اختلاف أنماطها للدلالة الحقيقية وفق مقتضيات الأحوال يعد من مهمات البلاغة.

وما ذكر سابقاً من أحاديث شريفة في موضوع أدوات الاستفهام تصلح ان تكون شواهداً لهذه المعاني الأول.

فالاستفهام في الأحاديث المذكورة يراد به دلالته الحقيقية ولا يحمل دلالة سواها والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، يمكن لمن يشاء الرجوع اليها في مواضعها[5].

المعاني الثانية (البلاغية)

يخرج الاستفهام عن غرضه الحقيقي عندما يكون المتكلم عالماً بالأمر الذي يسأل عنه، لا ينتظر إجابة، ولكنه يستفهم عنه لمعان وأغراض بلاغية يكشف عنها السياق وتدل عليها قرائن الأحوال. وهذا ما أطلق عليه بالاستفهام البلاغي[1].

---

(1) الخصائص: 462/2-464 ؛ البرهان: 347/2 .
(2) عروس الأفراح – شروح التلخيص: 307/2 ؛ وينظر الإتقان: 79/2-80 ؛ معترك الأقران: 439/1 .
(3) الإنسان / 1 .
(4) أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: 418 .
(5) للاستزادة، ينظر على سبيل المثال في فتح الباري: 605/1، 668، 704 ؛ 362/2، 517، 559 ؛ 45/3، 268، 280، 394، 402، 531، 535، 713، 723، 748، 190/4، 202، 229، 291، 361، 445، 503 ؛ 27/5، 55، 68، 93، 250، 254، 263، 264، 278، 304، 318، 339، وغيرها كثير .

ولعل السر في جمال أسلوب الاستفهام والعدول اليه عن الأسلوب الخبري الذي يفيد النفي او الإثبات او التوبيخ وما الى ذلك، هو ان الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج الى تفكير، ولما كان المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالمعاني المذكورة، كان في توجيه السؤال اليه حملاً له على الإقرار بها وهو أفضل من ذكرها. فالاستفهام كما يقول احد الباحثين: " تعبير مرهف، لأنه كغيره من التعبيرات يخرج المعنى من أسار التحدد ووحدة الجهة، ويثير فيه حاسة الأشكال، وبعد ان تكون العبارة الإخبارية ذات صفة واحدة نسبياً يصبح الاستفهام ذا صفتين او أكثر من ذلك[2].

وفيما يأتي تلك المعاني التي خرج اليها الاستفهام النبوي:

1- الإنكار

وهو من أهم الأغراض وأكثرها شيوعاً في كلام رسول الله، فقد احتل مساحة واسعة في بنية الاستفهام في الحديث الشريف وذلك لنكت بلاغية توخاها الرسول الكريم، منها إن الاستفهام الإنكاري ابلغ من النفي الصريح[3]، وذلك لأن المستفهم ينتظر من المخاطب جواباً، وذلك يجعله يفكر ويراجع نفسه، وربما يجد نفسه بعد هذه المراجعة وبعد هذا التفكير في ضيق وحرج، لا يحير معهما جواباً، فإذا أصر على موقفه او سولت له نفسه ان يجادل في الباطل، فإن السؤال سيزيده إحراجاً على إحراج، لأن السائل يترقب منه جواباً، وليس كذلك الأسلوب الخبري (النفي الصريح) إذ باستطاعته ان يفر من الجواب ويصمت، لذلك كثر في كتاب الله تعالى[4]، وفي حديث رسوله الكريم.

إن معظم الأحاديث التي تحمل دلالة الاستفهام الإنكاري كان الإنكار فيها لواقع حال رآه النبي الكريم ﷺ، او بلغه او سمعه، فثارت له نفسه الكريمة على وجه يناسب ذلك الحال مبتغياً تعديل المفاهيم القديمة، وتأسيس قيم جديدة تتلاءم والعقيدة الجديدة. كما إن في هذا الاستفهام جملة من الانفعالات تتنازع النفس، فقد يحمل الإنكار معاني التعجب والعتاب والتوبيخ والتهكم والاستغراب كما سنرى في الأحاديث الآتية:

روي إن امرأة من الأنصار قالت بعدما توفي عثمان بن مظعون ﷺ: رحمةُ اللهِ عليكَ أبا السائبِ، فشهادتي عليكَ لقد أكرَمَكَ اللهُ. فقال النبي ﷺ لها متسائلاً: " وما يُدريكِ أَنَّ اللهَ قد أكرَمَهُ؟ " [5].

---

(1) أساليب النفي في القرآن، د. احمد ماهر البقري: 283 ؛ البلاغة الاصطلاحية: 171 .
(2) نظرية المعنى في النقد العربي، د. مصطفى ناصف: 50 .
(3) الذي هو بمعنى ما كان ينبغي ان يكون ذلك الأمر او لا ينبغي ان يقع مثله .
(4) البلاغة فنونها وأفنانها: 199 ؛ أساليب الاستفهام في القرآن، عبد العليم فودة: 203 .
(5) فتح الباري: 147/3 .

وسمع رسول الله ﷺ صوتَ خصوم بالباب عالية أصواتهم، وإذا احدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء، وهو يقول: والله لا افعل. فخرج عليهما رسول الله فقال:

" أين المتألّي[1] على اللهِ لا يَفعلُ المعروفَ؟ فقال: أنا يا رسول اللهِ، فلهُ أيُّ ذلكَ أحبَّ " [2].

وروى أسامة بن زيد (رض الله عنهما) انه قتل رجلاً من الأنصار بعدما نطق بالشهادة، فأنكر عليه رسول الله ذلك بقوله:

" يا أُسامة، أقتلتَهُ بعد ما قال لا إله إلا الله؟ فقال له أسامة: يا رسول الله إنه إنما كان مُتَعَوِّذاً، فأجابه: قَتَلتَهُ بعدما قال لا إله إلا الله؟ " يقول أسامة: فما زال يكرّرها عليَّ حتى تمنّيتُ أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم[3].

وقال ﷺ لأسامة بن زيد أيضاً، عندما شفع للمرأة المخزومية التي سرقت:

" أتشفعُ في حدٍّ من حدودِ اللهِ؟ " [4].

فالاستفهام النبوي (وما يدريك؟) في الحديث الأول، لم يقصد به معرفة الشيء الذي أوحى لها بالكلام المذكور على الحقيقة وانما كان إنكاراً للشهادة على غيب أستأثره الله بعلمه، وهو معاملته سبحانه وتعالى للمتوفى بما اقتصت حكمته، ولو ذكرت المرأة الأنصارية لفظاً يدل على الرجاء او الظن كـ(عسى او لعل) لما حصل الإنكار، وانما كان الإنكار لأن ظاهر العبارة المؤكدة بـ(قد) يشعر بالاعتقاد الجازم إن الميت ذو ثواب وإكرام عند الله.

والإنكار هنا مصحوب بالترفق يشوبه التوجيه والتنبيه على إصدار أحكام قد تكون خاطئة، ولا سيما فيما يتعلق منها بالأمور الغيبية[5].

أما الحديث الثاني فالرسول ﷺ لم يسأل عن مكان هذا الرجل الحالف حقيقة لأنه خرج اليه ورآه، ولكنه أنكر ما سمعه منه، فالإنكار وقع على الإنسان الذي قابل استعطاف أخيه المؤمن بالمبالغة في الحلف على عدم المعونة وفعل الخير، فكره رسول الله له قطع نفسه عن فعل الخير، وعاتبه على ذلك بصيغة الاستفهام (أين المتألي على الله؟).

ولما أدرك الصحابي إنكار رسول الله له ذلك كف عن خطيئته بتحكيم صاحبه يختار ما أحب.

---

(1) المتألي: الحالف المجتهد في اليمين . اللسان (الا): 42/18 .
(2) فتح الباري: 385/5 .
(3) نفسه: 235/12 .
(4) نفسه: 103/12 .
(5) لمزيد من الأمثلة في المعنى نفسه، ينظر، فتح الباري: 212/2 ؛ 571/4 ؛ 176/6-177 .

قد أدى الاستفهام النبوي غرضه، فهو ادعى الى الإثارة والإقناع في هذا المقام من الأساليب الأخرى، لأنه جعل المخاطب يتواصل مع السائل في النظر بأمر ذلك الكلام وعواقبه، فعاد الى رشده في الحال. وهنا نحس ان درجة الإنكار أقوى قليلاً من الحديث السابق ولكنها تبقى دون درجة الانفعال الشديد.

ونحس بنبرة الإنكار تلك، في الحديث الثالث، في النداء (يا أسامة) الذي يجعل للإنكار وقعاً خاصاً يهز نفس أسامة هزاً وينفضها نفضاً، يغسل اكدارها ويعيد صفاءها، وفي هذا تمهيد للأسلوب الاستفهامي الذي تتصاعد فيه حدة الانفعال ويشتد الإنكار للخطأ الذي اقترفه أسامة ﷺ بقتله الأنصاري بعدما اسلم وهو في الوقت نفسه تنبيه للآخرين وتوجيه لئلا يتكرر الخطأ الفادح مرة أخرى لديهم.

ان حدة الانفعال في هذا المقام تظهر من تكرير الاستفهام، ومن الأعراض عن قبول العذر، كما ذكر راوي الحديث، وهذا يكون أوقع في النفس، بما ينطوي عليه من دعوة المخطئ الى تدبر حاله ومراجعة نفسه. ولا يخلو الإنكار في هذا الحديث من اللوم والتأنيب، ليس على فعل القتل حسب، وانما على قتل من تلفظ بالتوحيد، وفي هذا أثم كبير وتجاوز على حدود الشريعة الإسلامية، ولو ان لذلك الظرف ملابساته.

أما في، الحديث الرابع، فالأمر المنكر خطير لأنه يتعلق بمبدأ من مبادئ العقيدة الإسلامية ألا وهو إقامة الحد على السارق، لذلك كان الإنكار على أشده، فلم يسبق بالنداء الدال على قرب المنادى من النفس، كما جاء في الحديث السابق، لأن الانفعال قد بلغ مداه، فلا وقت للمحاباة والتقرب، " ليتنبه السامع حتى يرجع الى نفسه فيخجل ويرتدع، ويعيا بالجواب لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله " [1].

ومما يدل على تشدد الرسول الكريم في إنكاره سياق كلامه بعد الاستفهام، فقد خطب الناس وتوعدهم بالهلاك الذي وقع لإسلافهم لأنهم تسامحوا في إقامة حدود الله، فقال: " يا أيها الناس، إنما ضل من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد " [2] ثم أعقب كلامه بالقسم وبالأسلوب الشرطي محذراً من التسامح في إقامة الحدود ومن الشفاعة والمحاباة لمن وجب عليه الحد حتى وان كان (فاطمة بنت محمد) صلوات الله عليهما فقال: " وأيم الله لو إن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها " [3].

هكذا هي عدالة الشريعة الإسلامية لا تتهاون في عقاب الآثم حتى وان كان الولد الغالي، وضرب النبي ﷺ المثل بفاطمة لمنزلتها عنده مبالغة في الزجر والردع، وبهذا يخرس كل شفيع ينال من العدالة ولا يدع مجالاً للشك في ان تلك

(1) دلائل الإعجاز: 94 .
(2) فتح الباري: 12/103-104 .
(3) نفسه .

العدالة أسمى صفة بين الحاكم والمحكوم. ولم يكتف رسول الله بما ذكر عنه، بل نسب في كلامه فعل (القطع) الى الاسم الظاهر (محمد) وليس الى ضمير المتكلم، ليقينه ان ذلك ابلغ في الدلالة على مباشرة الفعل وأسرع في حسم الموقف[1].

يلاحظ من الأحاديث المتضمنة الاستفهام الإنكاري انه غالباً ما يأتي بصيغة المضارع على الرغم من ان الفعل المنكر قد وقع قبل زمن التكلم، وذلك لدلالة صيغة المضارع على الاستمرار والاستقبال، بمعنى ان الإنكار او النفي يسري على الفعل في أي زمن يقع فيه ماضياً كان او حالاً او مستقبلاً، وهذا ما يريد الرسول الكريم ان يوثقه في نفوس المسلمين ويشرعه في أمته.

كما يلاحظ ان جميع الأحاديث التي وردت فيه كانت بهمزة الاستفهام دون (هل)، والهمزة هي أوسع أدوات الاستفهام استعمالاً في الدلالة على النفي لإفادتها الإنكار الذي يلزم النفي كما قرر القدماء والمحدثون[2].

ومما يلفت النظر أيضاً ان الإنكار في الحديث الشريف غالباً ما تصاحبه معان أخر كالتوبيخ او التأنيب او اللوم او العتاب الرقيق او الاستبعاد[3]، من ذلك قوله ﷺ: " ما بالُ أقوام يقولون او يفعلون كذا وكذا؟ " [4] إذ تدل صيغة الاستفهام على الإنكار والتعجب. وقد تكررت صيغة العموم هذه في الحديث الشريف، فلم يوجه رسول الله الإنكار الى الفاعل[5] لأن الذي يهمه التنبيه على الفعل المنكر، إشارة الى انه ما كان ينبغي ان يصدر من احدهم مثل هذا الفعل.

وهذا التعدد دليل على أن المعنى الذي يفيده الاستفهام خفي ومتفلت، وان ما لدينا من أوصاف نتوهم انها تحيط به هي في حقيقة الأمر لا تستخرج منه إلا بعض إشاراته، او لا تصف منه إلا ما يظهر، وليس لدينا في محاولة السيطرة عليه وإظهاره سوى السياقات الحية ودلالات التراكيب، اذ " ليس لأدوات الاستفهام شأن في تحديد غلبة الانفعال على التعقل ومدى حدته في الاستفهام الإنكاري، وانما مناط ذلك لهجة الحديث او النغم " [6] المتواتر مثلاً في السياق.

---

(1) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: 100 .

(2) دلائل الإعجاز: 87، 88 ؛ حاشية الدسوقي – شروح التلخيص: 297/2 ؛ التراكيب اللغوية في العربية، د. هادي نهر: 14 ؛ أساليب النفي في القرآن: 302 ؛ أساليب الاستفهام في القرآن: 203 ؛ المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين: 188 .

(3) ينظر، فتح الباري: 29/1، 245، 683، 723، 727، 622، 676، 189/2، 324، 258/4، 559، 346، 501، 96، 145/5، 217، 272، 318، 415؛ 308/6، 309، 463، 560، 677،720، 113، 383، 477، 557؛ 61/7؛ 82/8، 219، 392، 682، 849، 913.

(4) تنظر هذه الصيغة في فتح الباري: 723/1 ؛ 296/2 ؛ 408/4 ؛ 677/6 ؛ 628/10؛ 204/13 .

(5) وكانت هذه عادته حيث ما كان يخصص العتاب والتأديب لمن يستحقه حتى لا يحصل له الخجل ونحوه على رؤوس الاشهاد . شرح الكرماني: 79/2 .

(6) أساليب النفي في القرآن: 299 .

2- التقرير

وهو الجاء المخاطب الى الإقرار بأمر يعرفه[1]. لذلك فهو لا يكون في الواقع معنى نهائياً كغيره من المعاني، وانما يكون لغرض من الأغراض. فقد تصاحب التقرير معان أخر يستدل عليها من السياق، كالتذكير والتوبيخ والتعجب والتحقير والتلطف والتهكم والوعيد وغيرها، ولهذا ذكر بعض النحاة ان التقرير هو المعنى الملازم للهمزة، وان غيره من المعاني كالتوبيخ والتحقيق والتذكير ينجر مع التقرير[2]، لأن ما في هذا الاستفهام شيء يثير سلسلة من الأفكار والرؤى حول حقيقة ما، وهذا يختلف عن محض التقرير والتحقيق وان أفاده[3].

والتقرير يلي الإنكار كثرة في الحديث الشريف، من ذلك ان رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، كيف يُحشَرُ الكافرُ على وجهِهِ؟ قال: " أليسَ الذي أمشاهُ على الرجلين في الدنيا قادراً على ان يُمشيهِ على وَجهِهِ يومَ القيامةِ؟ " [4].

ويقول المغيرة ﷺ ان النبي ﷺ كان لَيُصليّ حتى ترِمَ قدماه، فيقال له، فيقول: " أفَلا أكونُ عبداً شكوراً؟ " [5].

وقال ﷺ محذراً من النار ومتوعداً بها الكفار:

" ... وليلقيَنّ اللهَ أحدُكم يومَ يلقاه وليس بينَه وبينه تَرجمانٌ يُترجمُ له، فيقولَنّ: ألم أَبْعَث اليك رسولاً فَيبلِّغُكَ؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفْضِلْ عليك؟ فيقول: بلى. فينظرُ عن يَمينهِ فلا يرى إلا جهنّمَ، وينظر عن يسارهِ فلا يرى إلا جهنّمَ " [6].

وروي ان امرأة من جهينة جاءت الى النبي ﷺ فقالت:

" إنَّ أُمّي نَذَرَتْ ان تَحُجَّ فلم تَحجّ حتى ماتت، أفأحُجُّ عنها؟ قال: نعم حُجّي عنها، أرأيتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ أكنتِ قاضِيتَهُ؟ اقْضوا اللهَ، فاللهُ أحقُّ بالوفاءِ " [7].

لقد كان الرد النبوي، في الحديث الأول، تقريراً وتذكيراً للسائل بما نسي من فطرته، فقد دعيت العقول الى التفكر في إبداع خلقه، فقدم رسول الله البرهان العقلي المتمازج مع أسلوب التأثير النفسي فقال: ليس المشي على الوجه بأعسر من المشي

---

(1) شروح التلخيص: 294/2 .
(2) الجنى الداني: 99 .
(3) دلالات التراكيب: 229 .
(4) فتح الباري: 11/ 459 .
(5) نفسه: 18/3 .
(6) نفسه: 758/3، والحديث طويل اقتصرت على ذكر ما يخص الموضوع .
(7) نفسه: 79/4 .

على الرجلين، والذي استطاع إن يمشيه على الرجلين يستطيع إن يمشيه على الوجه في عالم آخر له سننه وقوانينه، وكل المقدورات أمام القدرة الإلهية سواء.

وقد جاء اسم ليس موصولاً له صلة خاصة لتقوية التقرير بل هو دليل عليه، فضلاً عن انه يعطي العقل فرصة التدبر تحقيقاً لمضمون الخبر.

أما الحديث الثاني فلعل في اقتران الاستفهام بالنفي (افلا...) ما يدل دلالة أعمق وأقوى على الرغبة في إثبات مفهومه في العقول والنفوس، وذلك من اجل إن يزيل من الأذهان معاني الاستغراب من قيام الرسول ﷺ وقد غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، ليصلي حتى ترم قدماه، فهو الرسول القدوة الذي يرسم للناس معالم العبادة ويختط لهم سبل الخير، ومنها الشكر على النعمة والمغفرة، ليقبل المؤمنون على الاقتداء برسولهم ويحذوا حذوه في أعمال الطاعات وفعل الخيرات – إن استطاعوا – على سبيل التحبيذ لا الإلزام. فالتقرير أفاد التحفيز والحث على الاقتداء بالرسول الكريم في العبادة.

إن إيقاظ المخاطب بهذا الاستفهام التقريري، في الحديث الثالث، وجواب المخاطب بـ(بلى) اشد تأثيراً وإبلاغاً للمراد من أي أسلوب آخر، وادعى الى الارتداع والتفكر في قصة ذلك الغيب المرتقب الذي سيكون فيه حوار بين الخالق وعبده. وإقرار الخالق لعبده بهذا الاستفهام دليل ملزم وتبكيت ملجم، من اجل إلزامه الحرج، وإيقاعه في أضيق أموره، أصغاراً لشأنه وتوبيخاً على جرمه. فصيغة الاستفهام لم تحقق الإقرار ببعث الرسل ومنح النعم حسب، وإنما أفادت معاني أخرى صحبت المعنى الأول (التقرير) تلك هي الترهيب والوعيد والتقريع لهؤلاء المعاندين.

ومما ورد في معنى التقرير والاخبار في الحديث الشريف، صيغة (أرأيتِ) [1] المذكورة في الحديث الرابع، فهذه الصيغة تكررت مراراً في الحديث الشريف حتى ليمكن ان تعد ظاهرة ملحوظة فيه[2] .

(1) كلمة تقولها العرب عند الاستخبار، بمعنى اخبرني . اللسان (رأى): 6/19 .

(2) ينظر، فتح الباري: 13/2، 93 ؛ 501/4 ؛ 672/6، 446 ؛ 642/8، 956؛ 488/11؛ 126/13، 484 .

ان اقتران الهمزة بالفعل المذكور تخرج عن كونها استفهاماً محضاً الى التقرير والاخبار[1]، بل قيل انها لا تكون إلا للاستخبار عن حالة يتعجب بها[2].

وقال الشهاب في حواشي البيضاوي: " وفي استعمال (أرأيت) بمعنى اخبرني مجاز، ووجه المجاز انه لما كان العلم بالشيء وابصاره سبباً للاخبار عنه استعمل رأى بمعنى علم وأبصر في الاخبار، والهمزة التي للاستفهام عن الرؤية في طلب الاخبار لاشتراكهما في مطلق الطلب ففيه مجازان " [3].

ان الدلالة الاستفهامية في صيغة (أرأيت) في سياقها التركيبي، تمنح الجملة الاستفهامية بعداً أدائياً متميزاً من خلال القيمة التنبيهية والتقريرية لوظيفة هذه الصيغة، وهي القيمة التي تسبغ على المعنى الاستفهامي قوة تنغيمية يتم بها استيضاح أبعاد هذا المعنى.

لقد أراد رسول الله في الحديث ان يقر ما سألت عنه المرأة بأسلوب المحاججة العقلية، فضرب لها المثل ليكون أوضح وأوقع في نفسها ونفس السامع واقرب الى سرعة فهمه وادعى الى إذعانه. فعمل أسلوب الاستفهام هنا على تحفيز عقل المخاطبة وإشراكها بالتأمل على وفق ما يقتضيه الحجاج العقلي الهادئ. ثم بعد ان اقرها رسول الله على ذلك خاطب المجموع بصيغة الأمر على سبيل الإلزام والوجوب من اجل تعميم الحكم.

وقد منحت صيغة (أرأيت) الجملة الاستفهامية معنى متميزاً من الدلالة على التقرير والاخبار والتنبيه، من اجل إقناع المخاطبة والوصول بنفسها الى حقيقة الجواب[4].

3- النفي

---

(1) إعراب ثلاثين سورة من القرآن، ابن خالويه: 201 .
(2) أساليب الاستفهام في القرآن: 33 ؛ لغة القرآن الكريم، د. عبد الجليل عبد الرحيم: 281 .
(3) الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام هارون: 68 ؛ وينظر دلالات التراكيب: 249 .
(4) لمزيد من الأمثلة في معنى التقرير ينظر، فتح الباري: 534/1، 98 ؛ 13/2 ؛ 48/3، 231، 297، 560، 731 ؛ 33/5، 313 ؛ 407/6، 446، 477، 518، 672 ؛ 145/7 ؛ 59/8، 84، 198 ؛ 129/9، 172 ؛ 204/10، 295، 617 ؛ 144/12، 160، 160، 376 ؛ 32/13، 390، 571، 596 .

قد يخرج الاستفهام في الحديث الشريف الى النفي، وسبق ان رأينا في الإنكار انه نفي أيضاً، ولكن النفي هنا يكون لمجرد النفي وليس مصحوباً بمعنى آخر كالتوبيخ او التكذيب كما في الإنكار.

وفيما يأتي نماذج من الأحاديث الشريفة تحمل هذا المعنى:

قال ﷺ: " ما مِن مَولودٍ إلاّ يولَدُ على الفِطرةِ، فأَبواهُ يُهوِّدانِهِ او يُنَصِّرانِهِ او يُمَجِّسانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهيمةُ بَهيمةً جَمْعاءَ (1)، هل تُحِسُّونَ (2) فيها مِن جَدْعاءَ(3)؟ " (4).

وروي ان سعداً ﷺ رأى ان له فضلاً من دونه، فقال النبي ﷺ:

" هل تُنصَرونَ إلا بضُعفائِكم؟ " (5).

وروي ان سائلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصلاة في ثوب واحد، فقال:

" أَوَلِكُلِّكم ثَوبان؟ " (6).

لقد سلك رسول الله ﷺ سبيل التصوير، في الحديث الأول، لتقريب الفكرة الى أذهان الناس أي إن الأبوين يهودان طفلهما او ينصرانه او يمجسانه بعد إن خلقه الله على الفطرة، كما تجدع البهيمة بعد إن خلقها الله تعالى سليمة.

إن جملة الاستفهام نيطت بعمل حسي مشاهد فضلاً عن الجانب المعنوي المقدس(7)، فكانت وسيلة أيضاً حذبت النظر، وأيقظت المخاطب للتفكير والتجاوب مع السائل، فلا يملك السامع إلا ان يقول (لا) جواباً.

كما ان دخول (من) المؤكدة في خبر الجملة المنفية المستفهم عنها بـ (هل) يعني ان المتحدث يرجح جانب النفي على الإيجاب فيما يستفهم عنه، أي ان السائل يتوقع ان يكون الجواب بـ(لا) (8)، وليست الهمزة كذلك، لأن المتكلم غالباً ما يستفهم

---

(1) جمعاء: أي سليمة من العيوب، مجتمعة الأعضاء كاملتها، فلا جدع بها ولا كي . النهاية: 296/1 ؛ اللسان (جمع): 411/9 .

(2) ذكر (تحسون) بدلاً من (ترون) مثلاً، لأن التحسس يكون بالحواس الخمس، اما الرؤية فهي لا تتحق إلا بحاسة واحدة .

(3) جدعاء: مقطوعة الأذن . اللسان (جدع): 390/9 .

(4) فتح الباري: 281/3 .

(5) نفسه: 110/6 .

(6) نفسه: 620/1 .

(7) كان العرب قبل الإسلام يجدعون أذن الناقة فتسمى البحيرة، فتأخذ طابعاً قدسياً فلا يجوز ذبحها .
ينظر سورة المائدة، الآية 103 .

(8) التطور النحوي: 109 ؛ التراكيب اللغوية في العربية: 356 .

بها في الحالات التي يكون في نفسه هاجس يوحي بإثبات ما يستفهم عنه[1] وهذا هو سر الاستفهام بـ(هل) بدلاً من (الهمزة) في مثل هذا الموقف.

وفي الحديث الثاني أفادت صيغة الاستفهام النفي بمعنى (لا تنصرون)، وقد شكل النفي مع الاستفهام أسلوباً يؤكد الحض على التواضع ونفي الزهو على الضعفاء، وترك احتقار المسلم في كل أحواله. ولم يجد الرسول ﷺ غير الاستفهام سبيلاً لإبلاغ سعد ﷺ وغيره بكل تلك المعاني التي لا تليق بالمسلم، مع خلق الإثارة والتجاوب مع فكر المتكلم ومشاعره، " فوظيفة اللغة ليست مجرد نقل أفكار او التعامل مع حقائق ثابتة، وانما تنقل الجانب المنطقي والجانب الانفعالي للمتكلم " [2] لا لا شراك المخاطب بهما وعندئذ تحصل الاستجابة المنتظرة.

وأراد النبي الكريم ان يخبر السائل، في الحديث الثالث، بأنه لا ثوبين لكل المخاطبين، لما كان يعلمه عليه الصلاة والسلام من ضعف حال المسلمين إبان الدعوة وقلة ثيابهم، فإذا كانوا كذلك فالصلاة في الثوب الواحد جائزة. وقد جاء ذلك النفي في التعبير النبوي مضمناً في أسلوب الاستفهام البليغ، فكان وقعه ابلغ في النفوس وتأثيره اشد في القلوب لأنه عمل على إثارة المخاطب بإشراكه في النظر، وانتزاع الجواب ب(لا) [3].

4- التشويق

يعد التشويق من الأغراض الشائعة في الحديث الشريف، " وهو أسلوب بلاغي نفسي راقٍ، يتأدى في البلاغة بوسائل عدة، والاستفهام أبرزها " [4].

فقد يورد ﷺ السؤال لخلق التشويق في معرفة الجواب من اجل الترغيب فيه او الترهيب منه، كأن يذكر لهم أمراً عظيماً، ومقصداً هاماً، وهدفاً مرجواً، يسعى اليه كل مسلم، ثم بعد ذلك يورد الاستفهام مقروناً بفعل يدعم التشويق بصيغته، ويصعده بمتعلقه، مثل: ألا أدلكم عليه؟ او يبتدى كلامه بصيغة التشويق هذه " ألا أدلكم؟ او ألا أنبئكم؟ او بالفعل (تدري) مسبوقاً بـ(هل) [5].

وأكثر ما جاء في هذا المعنى قد دخلت فيه همزة الاستفهام على (لا) النافية فاكتسب معنىً ثانوياً آخر وهو العرض[6].

وفيما يأتي نماذج من الأحاديث الشريفة في هذا الغرض:

قال أبو بكر ﷺ: " خطبنا النبي ﷺ يوم النحر " قال:

---

(1) البرهان: 433/4 ؛ الإتقان: 146/1 ؛ معترك الاقران: 573/1 ؛ الجنى الدائي: 340 .
(2) البلاغة والأسلوبية: 119-120 .
(3) للاستزادة ينظر، فتح الباري: 574/3 ؛ 117/4، 561، 562 ؛ 112/5، 161، 285 ؛ 4/6، 541-542، 23، 766 ؛ 743/8 ؛ 66/9 ؛ 210/10، 523 ؛ 543/11؛ 270/12؛ 371/13، 547 .
(4) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، صباح عبيد دراز: 269 .
(5) ينظر فتح الباري: 664/2 ؛ 410/11 .
(6) ينظر على سبيل المثال، فتح الباري: 855/8 ؛ 548/9 ؛ 224/11 .

أَتَدرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ قلنا: اللهُ ورسولهُ اعلمُ. فسكت حتى ظَننّا انه سيُسميّه بغيرِ اسمهِ، قال: أَليسَ يومَ النّحر؟ قلنا: بلى. قال: أيُّ شهرٍ هذا؟ قلنا: اللهُ ورسولهُ اعلمُ، فسكت حتى ظَننّا انه سيُسميّه بغيرِ اسمهِ، قال: أَليسَ ذو الحجّةَ؟ قلنا: بلى. قال: أيُّ بلدٍ هذا؟ قلنا: اللهُ ورسولهُ اعلمُ، فسكت حتى ظَننّا انه سيُسميّه بغيرِ اسمهِ، قال: أَليسَتْ بالبلدةِ الحرام؟ قلنا: بلى. قال: فإن دِماءَكم وأموالَكم عليكم حرامٌ كحُرمةِ يومِكم هذا في شهرِكم هذا في بلدِكم هذا الى يومَ تَلقَونَ رَبّكم ... " [1].

وعنه أيضاً ان النبي ﷺ قال:

" ألا أُنبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِر؟ (ثلاثاً). قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراكُ باللهِ وعقوقُ الوالِدَينِ – وجَلَس وكان متكئاً فقال – ألا وقولُ الزُّورِ. قال: فما زال يُكرّرُها حتى قلنا لَيتَهُ سَكَتَ " [2].

وقال ﷺ: " أرأَيتُم لو أنَّ نهراً بابابِ أحدِكم يَغتَسِلُ فيه كلَّ يومٍ خَمساً ما تقولُ ذلك يُبقي من دَرَنه؟ قالوا: لا يُبقي من دَرَنِه شيئاً. قال: فذلكَ مَثَلُ الصلواتِ الخمسِ يَمْحو اللهُ بهِ[3]. الخَطايا " [4].

صدر الرسول الكريم حديثه الأول بالاستفهام (أتدرون أي يوم ...؟) وكان ما سأل عنه معروفاً، ولكن لم يستطع الصحابة ان يردوا على سؤاله لما دخل على نفوسهم من الشك في معلوماتهم، لأنهم يعلمون انه لا يخفى عليه ما يعرفونه من الجواب، وانه ليس مراده مطلق الاخبار بما يعرفونه، ولهذا قال الراوي (حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه)، في مقام بلغت فيه انفعالات الرسول ﷺ مسارب عاقت لسانه الكريم عن ملاحقة القول، ففصل بسكتات طوال بين أجزائه من اجل استحضار فهمهم وشوقهم ليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولاشك ان المخاطبين في هذه الأثناء قد بلغوا الذروة من الانفعال والانتظار والتوجس، فالمخاطب في مثل هذا الموقف يرتبط بكل قواه بالمتكلم الذي قد سيطر على حسه.

لقد قسر رسول الله انتباه المخاطبين وخلق كامن الشوق لمعرفة سر العدول بالاستفهام عن المعلوم، ويتكرر هذا الاستفهام مع الشهر والبلد واليوم صعوداً باليقظة الى قمتها. ثم جاء الخبر الذي استوجب إحضار كل هذه القوى النفسية المدركة في تحريم الدماء والأموال تحريماً مؤكداً وتشبيهه بما اقروا على أنفسهم بألسنتهم بأنه أعظم حرمة من كل جنسه[5]، غير ان هنالك ضرباً من العمق في التأكيد لهذه

---

(1) فتح الباري: 731/3 .
(2) نفسه: 328/5 .
(3) هكذا وردت في الصحيح .
(4) فتح الباري: 13/2 .
(5) مناط التشبيه (كحرمة يومكم) ظهوره عند السامعين لأن تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتاً في نفوسهم مقرراً عندهم بخلاف الأنفس والأموال والأعراض فكانوا في الجاهلية

الحرمة، يلاحظ في العبارة البالغة كل الدقة، وهو دخول اليوم في الشهر في البلد، حرمات ثلاث بعضها فوق بعض هي المشبه به ليس واحداً منها على الانفصال[1].

ويحدثنا رسول الله في الحديث الثاني عن اكبر الكبائر، وهو أمر مكروه تأباه النفوس المؤمنة والقلوب التي تخشى الله سبحانه، لذا فهو يستوجب التكرار ثلاث مرات بصيغة الاستفهام (ألا) مقترنة بالفعل (أنبئ)، فهو إذن عرض يستقطب الأذهان، ويستولي على القلوب.

وقد نجح رسول الله في ذلك فقد تهيأت الأذهان للسماع وتشوقت لمعرفة تلك المعلومة التي تعد من اكبر الكبائر، فقد أتاه الجواب بتوجس وخيفة: بلى يا رسول الله.

ولما كانت هذه الكبائر مقررة بالكتاب العزيز ومقررة بالسنة المطهرة في وصاياه اكتفى بذكر العطف بينها – الإشراك بالله وعقوق الوالدين – ولكن هذه ليست كل المقصود ولا أهم المقصود لظهورها، وانما جعلت كالتمهيد لما يأتي، ألا وهو قول الزور.

ويصور التعبير (جلس وكان متكئاً) مدى ما صعد اليه اهتمام النبي ﷺ يصور هذا الانتقال المفاجئ من حال الاتكاء الى حال الجلوس، لا ليكون ترويحاً من وضعه الأول، ولكن ليكون نذيراً بأن شيئاً خطيراً سيحدث. عبارة قصيرة تتبع هذه الانتفاضة: ألا وقول الزور[2].

لقد فارقت الكبائر الأولى مع ما فيها من الشرك بالله، فارقتها بانها سبقت بعمل يقسر الانتباه، وبأداة تساوق العمل في مغزاه وهي (ألا) ثم كررت مرات لم يقدر الصحابي على حصرها، وفي هذا التكرار دليل على عظم شأن مدلولها، حتى ان الصحابة قد اخذوا وكادت قلوبهم تسقط فزعاً وتنخلع إشفاقاً على أنفسهم وعلى حبيبهم عليه الصلاة والسلام، فلم ينتبهوا لعدها. أليس يقول الراوي: حتى قلنا ليته سكت. فقد كان سكوته ﷺ متمنىً محبوباً يشغل نفوسهم إشفاقاً عليه من انفعاله وكراهة لما يزعجه[3].

يستبيحونها، فأخبرهم ان تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم، فلا يرد كون المشبه به اخفض رتبة من المشبه، لأن الخطاب انما وقع بالنسبة لما اعتاده المخاطبون قبل تقرير الشرع. ينظر فتح الباري: 209/1 .

(1) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: 349 .

(2) ان اهتمام الرسول ﷺ بشهادة الزور يحتمل ان يكون لأنها أسهل وقوعاً على الناس والتهاون بها أكثر، ومفسدتها أيسر وقوعاً، لأن الشرك ينبو عنه المسلم، والعقوق ينبو عنه الطبع، أما قول الزور فإن الحوامل عليه كثيرة كالعداوة والحسد وغيرهما فحسن الاهتمام بها . ينظر، فتح الباري: 504/10 .

(3) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: 76 .

وفي حديثه الثالث فإن ابلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام لا يقف عند المعاني المجردة لضعف تأثيرها وسرعة زوالها من النفوس، وإنما يعمد الى تجسيد المعاني في قوالب او صور محسوسة لإثارة اهتمام السامع بصورة اشد، ولترسيخ المعنى وتثبيته في نفسه، فقد يطلب من المرء أمر فلا يستجيب له، ثم يطلب منه هذا الأمر نفسه فإذا هو يستجيب، لأن الأسلوب الآخر يحمل إثارة لمشاعره، يأتي بصورة تلائم هذه المشاعر، وقد تكون هذه الصورة من قبيل الترغيب والإغراء[1].

فالمؤمن الذي يعد نفسه للصلاة في أوقاتها الخمسة مثله كمثل الإنسان الذي يمر ببابه نهر فهو يغتسل فيه خمس مرات كل يوم، والمماثلة بين الحالين قصد بها تقريب المعنى وترسيخه في أذهان السامعين عن طريق تجسيده بصورة حسية مرئية مصرحاً بها على وجه التقابل، فتكرار الصلوات يمحو الخطايا كما ان تكرار الاغتسال يزيل الدرن، وهنا ينتقل المؤمن كلما توضأ ليصلي، او كلما سمع النداء الى تصور نهر لا يجهده بعده، اذ هو قريب ببابه، وتصور درنه يؤذيه بقاؤه، اذ هو مشين فوق جسمه، وتصور اغتسال يورث النشاط ويزيل الدرن، فيرى نفسه مندفعاً الى الصلاة سعيداً بها لينقى مما يشينه ويبرأ مما يثقله[2].

لقد استطاعت هذه الصورة بما فيها من إيحاءات ان تخلق في المتلقي هزة ونشاطاً وتشويقاً، بل ان " كل إيحاء فيها يعمل على بث إعطاء يتفاعل في النفس " [3] فيحصل الإقناع والتأثير.

لقد اقترن الاستفهام بصورة المشبه به الذي سبق المشبه في التعبير النبوي لقسر انتباه السامعين، وتحريك شوقهم ولا سيما وهو يطلب منهم جواباً ليطيل الشوق ويزيد الانتباه، خاصة وان المشبه به صورة بديعة يتمناها كل فرد يشعر بالحياة ويحس بالجمال. وبعد ان اخذ اقرارهم على ذلك جاءت صورة المشبه المتأخر التي هي الصلوات الخمس، ذلك العمل الذي لا يزيل درناً شاخصاً عن البدن فحسب، وانما يمحو آثاماً وخطايا.

يلاحظ من الأحاديث المذكورة انه ﷺ يستعين بكل الوسائل في سبيل خلق التشويق والتأثير في المخاطبين، فقد يلجأ الى تكرير الاستفهام، او يغير من جلسته، او يأتي بصورة فنية بديعة من اجل تأكيد المعنى ولفت النظر وتنبيه الغافل[4] .

5- العرض والتحضيض

(1) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حنفي: 44 .
(2) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: 120 .
(3) دراسة في لغة الشعر، رجاء عيد: 44 .
(4) للاستزادة ينظر، فتح الباري: 172/1، 207 ؛ 664/2 ؛ 44/5 ؛ 457/6 ؛ 504/8 ؛ 65/9، 72، 77، 632 ؛ 313/11، 410 ؛ 498/13 .

إن الاستفهام الذي دل على العرض والتحضيض في الحديث النبوي، كان من اللطف وجلب الامتثال وتحريك كوامن الشوق لدى المخاطب، ما ليس في صيغة الأمر، لأنه يشعر المخاطب بشخصيته وانه طرف حر السلوك والاختيار، خلافاً لظاهر صورة الأمر الذي يوحي بالعلو والإلزام.

وصيغة العرض والتحضيض تكون بأداة الاستفهام (الهمزة) متلوة بحرف النفي (لا). ومما جاء في معنى العرض قول رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام:

" ألا تزورُنا أكثر مما تزورُنا؟ " [1].

ومن الاستفهام الذي جاء بدلالة العرض أيضاً قول رسول الله في شأن رجل أتاه يشكو الإجهاد والجوع:

" ألا رجلٌ يُضيفُهُ الليلةَ يرحمُهُ اللهُ؟ فقام رجل من الأنصار[2] فقال: أنا يا رسول الله ... " [3].

ومما جاء في معنى التحضيض قوله ﷺ لعلي وفاطمة (رضي الله عنهما) عندما طرقهما ليلة:

" ألا تُصلِّيان؟ ... " [4].

وحض النبي ﷺ جرير بن عبد الله على هدم نصب كان يعبد في الجاهلية، فقال:

" ألا تُريحُني من ذي الخَلَصة؟ [5] " [6].

ففي الحديث الأول نرى رسول الله يكلم ملكاً من ملائكة الله، لذا لابد إن يكون الأسلوب من الأدب واللطافة في التعبير ما يناسب ذلك المقام. والنبي الكريم أفصح العرب، خبير بافانين الكلام ومقتضيات الأحوال ومقام المخاطبين، لذلك كان طلب الإكثار من الزيارة بأسلوب الاستفهام (ألا تزورنا؟) الذي تظهر فيه رقة العرض وتلطف الطلب.

وبعد إن عجز رسول الله عن إن يضيف الرجل الجائع المجهد لافتقاره الى ما يقدمه له[7]، وجد ان لا سبيل أمامه إلا ان يعرض الأمر على أصحابه البررة بطريق

---

(1) فتح الباري: 375/6 .
(2) هو ابو طلحة (رض) .
(3) فتح الباري: 814/8 .
(4) نفسه: 12/3 .
(5) الخَلَصة: صنم كانوا يعبدونه في الجاهلية ويسمونه بالكعبة اليمانية، يضاهون به الكعبة، وخص جريراً بذلك لأنه كان في بلاد قومهم، وكان هو من أشرافهم . عمدة القاري: 269/14 .
(6) فتح الباري: 88/8 .
(7) ينظر تفاصيل الحديث، فتح الباري: 814/8 .

الاستفهام (ألا رجل ...؟)لما فيه من التلطف وتحقيق الامتثال وتحريك مشاعر المخاطبين، فقد كان ﷺ يدخل في اعتباره " دلالات كثيرة فوق الدلالة المباشرة، يأنس اليها السامعون ويفتقدونها اذا سيق لهم القول مغسولاً منها مقتصراً على أداء المعنى المجرد " [1]، كتخير الكلمات والأساليب المطابقة للموقف، وقد عزز ﷺ العرض بدعائه للمضيف بالرحمة ثواباً له.

وفي الحديث الثالث أراد رسول الله لابنته وابن عمه إحراز فضيلة صلاة الليل وأراد ان يأمرهما بالصلاة امتثالاً لقوله تعالى (وَأمر أَهلَكَ بِالصَّلاةِ) [2]، ولكنه عدل عن أسلوب الأمر الصريح، لأن صلاة الليل ليست من الفرائض، فتفرض على سبيل الإلزام، واختار أسلوب الحض والحث (ألا تصليان؟) لأنه أكثر مراعاة لنفسية المخاطبين، وعدم إشعارهم بشعور المأمور الذي يملى عليه الأمر بلا جدال، بل بالتودد والتحبب الداعي الى الامتثال والاستجابة.

وطلب رسول الله من جرير، في الحديث الرابع، بأسلوب الاستفهام الدال على معنى الحض والحث، هدم البيت الذي كان يعبد فيه غير الله تعالى، راحة لقلبه الشريف، وعبر بالراحة عن الرغبة في هدمه.

واختار ﷺ التحضيض بأسلوب الاستفهام لحمل المخاطب على أمر هو غير ملزم به لما في هذا الأمر من كلفة وعناء قد ينوء بهما، وقد امتثل الصحابي جرير لطلب الرسول ﷺ فنفر اليه في خمسين ومائة فارس فكسروا الصنم وقتلوا من وجدوا عنده، ثم اخبروا الرسول بما فعلوا فدعا لهم[3].

وتكرر ورود غرض العرض والتحضيض في الاستفهام النبوي، لكني اكتفي بما ذكرت منه[4].

6- التعجب

وهو معنى يخرج اليه الاستفهام معبراً عن شعور المتكلم إزاء أفعال المخاطب او أقواله المتناقضة، او ما جرى على غير قانون العقل والمنطق والمألوف في العرف الاجتماعي، وهو في بعض حالاته لون من ألوان الإنكار، وقد تصحبه معانٍ أخرى تمازجه فيدق ويخفى وحينئذٍ يستدل عليه بالقرينة والسياق.

---

(1) مدخل الى علم الأسلوب: 30 .
(2) طه / 132 .
(3) ينظر تفاصيل الحديث: فتح الباري 88/8 .
(4) للاستزادة ينظر، فتح الباري: 225/3 ؛ 145/6، 200، 457 ؛ 658/8، 855 ؛ 548/9 ؛ 86/10 ؛ 143/11، 224، 452 ؛ 246/13، 387 .

وقد لحظ الرسول الكريم في أفعال المسلمين وأقوالهم ما لا ينبغي ان يكون، لذلك أبدى تعجبه من ذلك بصيغة الاستفهام، بهدف التقويم والتربية المثلى وصولاً الى الكمال المنشود في مجتمع إسلامي متماسك.

ومن هذه الأحاديث التي انطوى الاستفهام فيها على التعجب قوله ﷺ، عندما استيقظ ذات ليلة فقال:

" سُبحانَ اللهِ، ماذا أُنزِلَ من الخزائن، وماذا أُنزِلَ من الفتن[1]، من يُوقِظ صَواحِبَ الحُجر – يريد به أزواجَه – حتى يُصلِّين 000 " [2].

وقالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ له:

" يا رسولَ الله، انكِحْ أختي بنت أبي سفيان. فقال: أَوَتُحِّبينَ ذلكَ؟ " [3].

وقال ﷺ لعقبة بن الحارث عندما اخبره ان امرأة سوداء جاءت فزعمت انها قد أرضعت عقبة وزوجه، فأعرض عنه ﷺ وتبسم قائلاً:

" كيفَ وقد قِيلَ؟ " [4].

الاستفهام النبوي في الحديث الأول، لا يراد به جواب، وانما كان تعبيراً عن تعجب قائله ﷺ مما رأى في تلك الليلة من الخزائن التي ستفتح لأمته، ومما سيقع بعده من الفتن.

والتعبير بالأداة (ماذا) يضيف الى الاستفهام قوة وبلاغة لا تكون في (ما) لوحدها ولعل ذلك يعود الى زيادة حروفها[5]، وقد استثمر الرسول ﷺ هذا العنصر لتأكيد التعجب مما انزل من الخزائن ومما انزل من الفتن بسببها، ولم يسعه وهو في خضم انفعاله من خوفه على أمته مما نزل في تلك الليلة، إلا أن يتساءل عمن يوقظ نساءه ليصلين عسى أن تشملهن رحمة ربهن.

وقد سبق الاستفهام التعجبي هذا لفظ (سبحان الله) الذي يذكر أيضاً في مقام التعجب[6]. ولفظ (سبحان الله) إذا تقدم الخبر استلزم معنى استعظام ما يذكر بعده استلزاماً بلاغياً[7].

والاستفهام النبوي في الحديث الثاني (أوتحبين ذلك؟) يشي بالتعجب والإنكار معاً، فان ام حبيبة (رض) وهي الزوجة تطلب من زوجها ان يتزوج غيرها، مع ما

---

(1) هذا الحديث من جملة معجزات النبي ﷺ اذ اخبر بذلك قبل وقوعه، فقد فتحت خزائن فارس والروم، وغنم المسلمون الأموال من البلاد المفتوحة، ووقعت الفتن بعد ذلك كما هو مشهور . ينظر، فتح الباري: 731/10 .

(2) فتح الباري: 730/10 .

(3) نفسه: 174/9 .

(4) نفسه: 366/4 .

(5) درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الاسكافي: 331 ؛ التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي: 97 .

(6) الكشاف: 138/3 .

(7) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: 370 .

طبعت عليه المرأة من الغيرة، في ان تشاركها في زوجها امرأة أخرى حتى لو كانت أختها، ان هذا الشيء خارج عن المألوف يستبعد تصديقه، ويدعو حقاً الى العجب.

والاستفهام في الحديث الثالث، يراد به التعجب والإنكار[1] أيضاً، أي كيف تستطيع الاستمرار في علاقتك الزوجية وقد قيل انك أخوها؟ ان ذلك بعيد عن ذوي التقوى والورع. وإذا كان الإنكار بالهمزة يؤذن باستحالته في نفسه او لقوة الصارف عنه، فان الإنكار بـ(كيف) أقوى وابلغ في ذات الأسلوب لهذه الأداة الدالة على الحال[2] التي صعدت التعجيب، بل أخرجت الاستمرار في العلاقة الزوجية في صورة المستحيل، ومع ذلك لم يصل الانفعال الى حد الغضب بدلالة قول الراوي (اعرض عنه وتبسم ...) [3].

(1) ذكر البدر العيني ان الاستفهام هنا يراد به الاستبعاد . عمدة القاري: 99/20 .
(2) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم: 259 .
(3) للاستزادة، فتح الباري: 212/2 ؛ 333/3 ؛ 529/4، 559 ؛ 113/6، 477 ؛ 151/9، 219 ؛ 555/10، 734 ؛ 314/11 .

7- الاستدراج

ومن الأغراض التي يهدف اليها الاستفهام النبوي الاستدراج[1]، وهو أن يسأل النبي أصحابه سؤالاً، فيجيبوه عليه، لينطلق بعد ذلك الى الموضوع الذي يريد التحدث عنه، بعد ان تكون الأذهان قد تهيأت، والنفوس قد تحفزت للاستماع والإصغاء، فيكون التأثير أوقع واشد في النفس مما لو ذكر الإبلاغ بصورة مباشرة دون إثارة، " فالمبدع عن طريق الاستفهام يتخلص من ركود العبارة المألوفة والصفة الآلية التي تلابس الوضوح " [2] والمباشرة. كما سنرى ذلك في الأحاديث الآتية:

روي انه لما أنزلت الآية الكريمة (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) [3] خرج رسول الله حتى صَعد الصفا فَهتَفَ:

" يا صباحاه. فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا اليه، فقال: أَرأيتُم ان أخبرتُكم انَّ خيلاً تخرُجُ من سَفح هذا الجبلِ اكنتم مُصدِّقِي؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كِذباً. قال: فانّي نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد ... " [4].

وعن سهل بن سعد قال:

" مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حَريٌّ إن خَطب أن يُنكحَ، وإن شَفَعَ ان يُشفِّع، وإن قال أن يُستَمع. قال: ثم سكت. فمر رجلٌ من فُقراء المسلمين، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خَطَبَ ان لا يُنكحَ، وإن شَفَعَ ان لا يُشَفَّعَ، وإن قال ان لا يُستَمَعَ. فقال رسول الله ﷺ: هذا خيرٌ من مِلءِ الأرض مثلَ هذا " [5].

---

(1) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: 364-365 .
(2) نظرية المعنى في النقد العربي: 51 .
(3) الشعراء / 214 .
(4) فتح الباري: 956/8 .
(5) نفسه: 164/9 .

وقال النبي ﷺ:
" أيُّكم مالُ وارثِه أَحَبُّ اليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا احدٌ إلاّ مالُه أحبُّ اليه، قال: فإن مالَه ما قدّمَ، ومالَ وارثِهِ ما أَخر " (1).

إن مهمة الإبلاغ وتحقيق ما تهدف اليه من اليقين والاقتناع من المهمات الصعبة التي تؤدى على حذر وتؤدة، فاذا ما نهض الداعي بهذه المهمة رأى إن الدخول اليها مباشرة لا يحقق من النتائج ما هو حريص على تحقيقه، فالقضية اكبر من أن تلقى على المسامع مباشرة من غير تمهيد او تهيئة، لذلك فقد سلك رسول الله ﷺ، في الحديث الأول، الى إبلاغ الناس انه نذير لهم بين يدي عذاب شديد سبيل الاستدراج وتهيئة الأذهان عن طريق النداء أولاً، تنبيهاً الى أن ثمة أمراً ذا بال، وحين ضمن اجتماع القوم أراد إن يضمن إقرارهم على ما سيقول، فألقى سؤالاً (أرأيتم...؟) ينهيه بقوله: (أكنتم مصدقيّ؟) فليس السؤال اختباراً للقوم على صدقه او بخلاف ذلك – حاشاه – فالأمر محسوم قبل إن يأتي بالرسالة، ولكنه الاستدراج الى الموضوع الرئيس ألا وهو إخبارهم بأنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد، آخذاً بذلك الإقرار على صدقه سبيلاً الى إقرارهم بصدقه في موضوع الإنذار والرسالة.

وفي الحديث الثاني كان الاستفهام النبوي أيضاً استدراجاً للمخاطبين لقسر انتباههم وجذب إصغائهم الى ما سيقوله لهم في مفاهيم خاطئة كانت قد غرست في أذهانهم، فلو سلك أسلوباً خبرياً في تغيير هذه المفاهيم الراسخة لما كان لها هذا الوقع في نفوس المخاطبين، لذلك سلك سبيل الاستفهام من اجل استدراج المخاطبين الى انه حري بهم إن يراجعوا أنفسهم في هذه المفاهيم، ويعلموا على تغييرها في ضوء الإيمان الذي هدم كثيراً من المألوف البعيد عن الصواب، فالمفاضلة تكون في التقوى ولا تكون في الغنى والفقر.

وسؤال النبي الكريم في الحديث الثالث، يخاطب العقل في المتلقي، ليصل عن طريق النظر في العاقبة الى اختيار سبيلها. إن السؤال يبدو غريباً لأول وهلة، لأنه معارض لما خلقت عليه النفس البشرية فما احد إلا وماله أحب اليه.

لقد أثار هذا الاستفهام في نفوس المخاطبين علامات الاستغراب والاستيضاح، فانطلق صوتهم مخبراً بأدب، ما منا احد إلا ماله أحب اليه، وهنا يأتي التوضيح والبيان فيستقر الجواب في النفس أتم استقرار.

لقد أراد الرسول الكريم بهذا السؤال استدراج المخاطبين الى الموضوع الرئيس وهو الحض والترغيب على إنفاق المال في حياة الإنسان في وجوه البر

(1) نفسه: 313/11 .

لينتفع به في الآخرة، اما إن لم يفعل ذلك فهو يجمعه لوارثه[1]. ولا يخفى ما في الاستفهام من الإثارة، والتلطف في النصح المرتب على المقارنة، وهو خير من الأمر المحض ببذل المال في سبيل الخير، لأن السائل يحصل بالاستفهام على حكم من المخاطب يخجل لو تعداه لأنه حكم منه على نفسه[2].

8- التأنيس والتسلية

وأسلوب الاستفهام في البيان النبوي قد يكون إيناساً للمخاطب، وتلطفاً معه، وتسكيناً لنفسه، في مقام هو أحوج ما يكون فيه الى المواساة.

من ذلك قوله ﷺ رداً على قول صاحبه أبي بكر الصديق ﷺ وهما في الغار: لو أن أحدَهم نظرَ تحت قَدَميهِ لأَبصَرَنا. فقال ﷺ:

" ما ظَنُّكَ يا أبا بكر باثنينِ اللهُ ثالثُهما " [3].

وجاءت أم حارثة الى النبي ﷺ، وقد أصيب ولدها حارثة[4] يوم بدر، فقالت: يا رسول الله قد عرفتَ منزلةَ حارثةَ مني، فأن يَكن في الجنةِ أَصبرْ واحتسبْ، وإن تَكُنِ الأخرى تَرَ ما اصنعُ. فقال:

" وَيْحَكِ – أَوَهَبِلْتِ - [5] أَوَجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ انها جِنانٌ كثيرةٌ، وإنّهُ في جنّةِ الفِردَوس " [6] .

وقال ﷺ لفاطمة (رضي الله عنها) في مرضه الذي مات فيه:

" يا فاطمة ألا ترضَينَ أن تكوني سيدةَ نساءِ المؤمنين؟ " [7].

فالحديث الأول يهدف الاستفهام النبوي فيه الى إقرار أمر يبعث في نفس أبي بكر ﷺ الطمأنينة ويسبغ عليها السكينة، ذلك انه أبدى مخاوفه مما سيقع للرسول الكريم وهو الحريص على ألاّ يصاب بأذى، لو أن أحداً من المشركين أبصر بهما وهما في الغار، ولو قال له النبي الكريم بأسلوب الخبر المباشر: لا شيء علينا يا ابا

---

(1) أي ان الذي يخلفه الإنسان من المال وان كان هو في الحال منسوباً اليه فغنه باعتبار انتقاله الى وارثه يكون منسوباً للوارث، فنسبته للمالك في حياته حقيقية، ونسبته للوارث في حياة الموروث مجازية ومن بعد موته حقيقية . وينظر فتح الباري: 11/ 313 .

(2) للاستزادة: فتح الباري 13/2 ؛ 347/3 ؛ 72/9 ؛ 523/10 .

(3) فتح الباري: 10/7 .

(4) هو ابن سراقة بن الحارث بن عدي الأنصاري، وأمه الربيع –بالتشديد – بنت النضر، عمة انس بن مالك، فتح الباري: 387/7 .

(5) الهبل: الثكل، ويستعمل في معنى المدح والإعجاب . النهاية: 240/5 ؛ اللسان (هبل): 210/14 .

(6) فتح الباري: 387/7 .

(7) نفسه: 94/11 .

بكر او لن يرانا احد أبداً ونحن في رعاية الله، لما حقق ذلك ما يتطلبه الموقف القلق الذي كان أبو بكر بحاجة اليه، من التذكير – عن طريق السؤال – بوجود الله معهما، وهذا الأمر بحد ذاته مبعث هدوء للنفس وسكون للروع.

والرسول ﷺ، هو افصح الناطقين بالضاد، يدرك ما " للأحوال من مقتضيات ينبغي إن تراعى في صيغ أسلوبية محددة تناسب الخطاب والمتلقي والسياق " [1]، فتحقق قدراً أوفر من الإثارة والتأثير إيجاباً، لذلك سلك سبيل الاستفهام المثير للذهن والانفعال.

وفي الحديث الثاني أتت أم الشهيد حارثة الى رسول الله لتسأل عن منزلة ابنها، وقد رأى ما بها من حزن وأسى على فراق ولدها، فلم يكن ابلغ من أن يواسيها ويخفف حزنها على ولدها بالأسلوب الاستفهامي (أوجنة واحدة...؟) الذي أنكر عليها قولها: (فإن يكن في الجنة) لأنها ليست بجنة واحدة، ولكنها جنان كثيرة وأن ابنها قد أصاب أعلاها، وهي الفردوس، هذه بشرى لها لتصبر ولتفرح ولا تحزن، وقد بشر الله تعالى من قبل شهداء معركة بدر بالجنة.

وقد سبق التعبير الاستفهامي المذكور استفهام آخر (أوهبلت؟) مبدوءاً بكلمة (ويحك) [2] للتعجب مما يخالجها من شك في عاقبة ابنها الشهيد، فكأنه قال أفقدت عقلك بفقد ابنك حتى جعلت الجنان جنة واحدة، كل ذلك دلالة على تأكيد معاني التأنيس للأم، والإعجاب بمنزلة الولد، والحث على الجهاد وغير ذلك مما يدل عليه السياق.

وعندما جاءت فاطمة (رض) لزيارة والدها المريض ﷺ في الحديث الثالث، رحب بها واخبرها باقتراب اجله، فلم يسعها إلا أن تجهش بالبكاء حزناً على فراق أبيها، فأراد رسول الله أن يواسيها ويسليها فسارها بهذا النداء الأبوي (يا فاطمة) ثم بالأسلوب الاستفهامي الذي ادخل السرور الى قلبها المحزون (ألا ترضين...؟) فإذا كلمات رسول اله قد نالت شغاف قلبها ونزلت عليه كالبلسم فنست حزنها، فإذا هي تضحك[3].

(1) نقد الأسلوب، من علم البلاغة الى علم الأسلوبيات، د. مازن الوعر، بحث مقدم الى مؤتمر النقد الأدبي الرابع، جامعة اليرموك، الأردن، 1992، ص 4 .

(2) ويح: كلمة ترحم وتوجع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها، وقد تقال بمعنى المدح والتعجب . النهاية: 235/5 ؛ اللسان (ويح): 478/3 .

(3) ينظر تفاصيل الحديث: فتح الباري: 94/11 .

وهكذا حمل أسلوب الاستفهام الى فاطمة (رض) في جملة ما حمل التأنيس والتسلية بالبشرى التي بشرها رسول الله بها، بأنها ستكون سيدة نساء المؤمنين في الجنة[1].

(1) للوقوف على مزيد من الأحاديث في هذا المعنى ينظر فتح الباري 413/2 ؛ 39/6 ؛ 849/8 ؛ 644/10 .

9- الندب

وقد يخرج الاستفهام النبوي الى معنى الندب، وهو الدعوة، يقال: ندبه لأمر فأنتدب له أي دعاه له فأجاب[1]. كما في هذه النماذج من الأحاديث الشريفة:

قال رسول الله ﷺ يوم بدر:

" من ينظرُ ما صَنَعَ أبو جهل؟ " [2].

وقال:

" من يأتيني بخبرِ القومِ يومَ الأحزاب؟ فقال الزُّبيرُ: أنا. ثم قال: من يأتيني بخبرِ القومِ؟ قال الزّبيرُ: أنا. قال النبي ﷺ: إنَّ لكلِّ نبيٍّ حَواريّاً وحواريّ الزُّبيرُ " [3].

وقال أيضاً:

" من لِكَعْبِ بنِ الأشرفِ؟ فإنّه آذى اللهَ ورسولَهُ ... " [4].

فالحديث الأول خرج الاستفهام الى معنى الندب، وإيقاظ الهمم بتلطف وتودد للوقوف على صنيع أبي جهل، وفي هذا الفعل خدمة للمسلمين، ولأسلوب الاستفهام في هذه المواقف فضل إثارة الهمم وتحريض العزائم.

وندب الرسول ﷺ بأسلوب الاستفهام (من يأتيني؟) احد السامعين من الصحابة ليأتيه بخبر العدو في واقعة الأحزاب، فقدم الزبير نفسه، فأعاد رسول الله الندب، فأعاد الزبير تقديم نفسه، حتى إذا ما ستوثق الرسول من رغبة الزبير للقيام بهذه المهمة أوكلها اليه، وجعله حواريه تكريماً له وتقديراً.

وأراد رسول الله بصيغة الاستفهام (من لكعب؟) إن يجيب احد الصحابة دعوته ويتصدى لقتال الرجل الذي آذى الله ورسوله. وقد اثر رسول الله هذه الصيغة لما فيها من تلطف في السؤال، لأنها تجرد المتكلم من أن يفرض على احدهم القتال وهو غير قادر عليه، او راغب فيه فيظلمه، كما إن الذي يقدم نفسه طواعية يكون عطاؤه أكثر والتزامه بالتنفيذ أقوى[5].

10- التنبيه

وهو من المعاني التي عبر عنها الاستفهام النبوي، من ذلك ان رسول الله ﷺ خرج الى تبوك، واستخلف علياً، فقال: أَتخلِّفُني في الصبيان والنساء؟ قال:

---

(1) الصحاح (ندب): 223/1 .
(2) فتح الباري: 408/7 .
(3) نفسه: 66/6 .
(4) فتح الباري: 178/5 .
(5) للاستزادة، فتح الباري: 36/3 ؛ 311/5 ؛ 100/7 .

" ألا ترضى ان تكون مني بمنزلةِ هارونَ من موسى؟ إلا أَنّهُ ليس نبيٌ بعدي " [1].

واخذ الحسن بن علي ﷺ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال له النبي: " كِخْ، كِخْ [2]، أما تَعرفُ أنّا لا نأكلُ الصدَقة؟ " [3].

وقال ﷺ للأنصار بعدما أفاء الله على رسوله من أموال هوزان في غزوة حنين، فقسمها في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئاً[4]، فكأنهم وجدوا[5]، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فبلغه ذلك فجمعهم في قبة فقال:

" يا معشرَ الأنصار، ما حديثٌ بلغني عنكم؟ فسكتوا. فقال: يا معشرَ الأنصار، ألا تَرضَونَ أن يذهبَ الناسُ بالدنيا، وتذهبونَ برسولِ الله تحوزونَهُ الى بيوتِكم؟ قالوا: بلى " [6].

ففي الحديث الأول أراد رسول الله ان ينبه علياً ﷺ على ان ما ينهض به انما هو تكليف خاص لا ينهض به غيره، وليس الأمر على ما تصور حين أبدى رأيه مسوقاً في شيء من الحذر والتوجس الظاهرين في سؤاله (أتخلفني في الصبيان والنساء؟) وهو استفهام لا نستطيع حمله على الإنكار، فمثل علي ﷺ وقد تربى في أحضان النبوة وتأدب بأدب الإسلام لا ينكر على نبيه شيئاً، وهو العارف بان أمره مطاع ولا ريب، ولكنه محمول على عدم تبينه وانتباهه لجلية الأمر الذي يدعوه الى ان ينصرف عن المهمة الكبرى وهي اللحاق بركب المجاهدين، إذاً ذلك هو إحساس المؤمن الحريص على ألا يتخلف عن جسيمات الأمور، فجاء الاستفهام منبهاً على غير ما ذهب اليه ظنه ومرغباً له في ذلك (ألا ترضى ...؟). عندئذٍ يحس علي ﷺ بالطمأنينة لينصرف الى أداء المهام الموكلة اليه بثبات ويقين، فيقول: رضيت رضيت، كما ورد في رواية أخرى[7].

وخاطب النبي الكريم، في الحديث الثاني، أحب الناس اليه الحسن بن علي ﷺ وكان صبياً، بما يفهمه فزجره عن الفعل بعبارة الزجر المكررة، ثم أعقبها عبارة التنبيه الاستفهامية، تعليلاً لصيغة الزجر المذكورة، حتى يرتبط ما بينهما فيتقرر في ذهن المخاطب ﷺ فيتنبه ولا يغفل عن ذلك مستقبلاً.

---

(1) فتح الباري: 141/8 .
(2) كخ: كلمة زجر للصبي وردع، وتقال عند التقذر أيضاً . النهاية: 154/4 .
(3) فتح الباري: 226/6 .
(4) قسم رسول الله الغنائم في ناس من قريش اسلموا بعد الفتح إسلاماً ضعيفاً، من اجل ان يتمكن الإسلام في قلوبهم . فتح الباري: 60/8 .
(5) وجدوا: من الموجدة وهي الغضب، او من الوجد وهو الحزن . اللسان (وجد): 459/4 .
(6) فتح الباري: 67/8 .
(7) نفسه: 93/7 .

لقد أثار الصبي النبي الكريم لتقريبه من فمه تمرة من تمر الصدقة، والصدقات أوساخ الناس تخرج من أموالهم فتطهرها، لذا جاء التنبيه قوياً بـ(اما) للفت انتباه المخاطب الى هذه الخاصية التي ينفرد بها أهل البيت.

وفي الحديث الثالث بدأ النبي خطبته بنداء المخاطبين تنبيهاً لهم، وإيقاظ الغفلة فيهم ثم أعقب النداء الاستفهام الذي يحمل في دلالته العامة المعاتبة واللوم، ثم بعد ان قربهم نفسياً اليه بتكراره صيغة (يا معشر الأنصار) التي تحمل معاني الود والاستمالة، جاء التنبيه قوياً مباغتاً للنفس بالأداة (ألا) التي تمثل قمة الإحساس بالموقف، والحاجة الملحة الى لفت انتباه من يسمع، واستحضار ما غفل عنه من أمر ما حصل عليه غيرهم من عرض الدنيا الفانية، وما سيحصلون عليه من رضا رسول الله ﷺ وثواب الآخرة[1]. ثم ان التعبير بالفعل (تحوزونه) دال على الظفر بالشيء الثمين مما يضفي لمسات واضحة الى معاني التنبيه والترغيب.

11- الأمر

قد يرد الاستفهام في الحديث الشريف، ويكون الغرض منه توجيه الأمر الى المخاطب، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من الأدب في الخطاب، ومن الإثارة والتشويق، وسياسة النفوس والتأثير فيها، وإشراكها في عملية الإقناع، فهو يزيد على الأمر الصريح بهذه المعاني الإضافية، كما انه يمثل قمة الطلب[2]، كما سنرى في تحليلنا للأحاديث الشريفة المنطوية عليه.

قال النبي ﷺ في نصرة ابي بكر على عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) وقد تغاضبا مرة، موجهاً كلامه الى عمر ﷺ ومن معه:

" إنّ اللهَ بعثني إليكم، فقلتم كذبتَ، وقال ابو بكرٍ: صَدَقَ، وواساني بنفسِهِ ومالِهِ، فهل انتم تاركو لي صاحبي؟ (مرتين). فما أوذِيَ بعدَها " [3].

وفي حديث للرسول ﷺ مع وحشي، قاتل حمزة ﷺ عندما قدم عليه، فقال له:

" فهل تستطيعُ أن تُغيّبَ وجهَكَ عني؟ " [4].

وقال ﷺ لجماعة كانوا عنده:

" أتبايعوني على أن لا تُشركوا باللهِ شيئاً، ولا تزنوا، ولا تَسْرقوا؟ " [5].

لقد بين الرسول الكريم منزلة أبي بكر، في الحديث الأول، وفضله في الإسلام أولاً، ثم أعقب ذلك بالاستفهام الدال على الأمر (فهل انتم تاركوا...؟) بمعنى اتركوا

(1) للاستزادة ينظر، فتح الباري: 177/2 ؛ 745/8 .
(2) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم: 264 .
(3) فتح الباري: 21/7 .
(4) نفسه: 466/7 .
(5) نفسه: 822/8 .

لي صاحبي، وكرره مرتين دلالة على شدة انفعاله، وتأكيداً للمضمون، وهو عدم إيذاء صاحبه في المستقبل.

توخى الرسول ﷺ صيغة الاستفهام في توصيل طلبه الى المخاطبين لما في هذه الصيغة من تودد وامتنان[1]، وتلطف في الخطاب لئلا يشعر المخاطب بأنه مأمور، وفي هذا مراعاة نفسية المخاطبين، ومن هنا كان الأمر بصيغة الاستفهام ابلغ أثراً، وأقوى دلالة، وشاهد ذلك ان الصحابة قد امتثلوا لهذا الأمر (فما أوذي بعدها).

ومما يلفت النظر ان الاستفهام جاء بـ(هل) داخلة على جملة اسمية بخلاف طبيعتها، فهي الى الفعل أميل، وفي هذه المخالفة دليل على رغبة المتكلم في معنى الاسمية أي الثبوت والدوام[2]، وهي أقوى من استعمال الهمزة. يقول السيوطي في ذلك: " ان هل والهمزة وان اشتركتا في الدخول على الفعل لكن (هل) للفعل ادعى منها فتركه معها أدل منها على كمال العناية بحصول ما سيتجدد لتحويله عن أصله، وتحويل الشيء عن أصله إنما يكون لغرض أقوى منه بخلاف الهمزة " [3]. كما ان الاستفهام بـ(هل) يزيد المعنى تأكيداً، لأنها تكون لما هو أقوى وآكد في الاستفهام[4][5].

وأراد رسول الله، في الحديث الثاني، أن يأمر وحشياً بتغييب وجهه عنه، أي بالابتعاد، لكنه عدل عن صيغة الأمر المباشر الى صيغة الاستفهام لما في هذه الصيغة من إغراء بالعمل والحث عليه، لأنها مخاطبة النفس والعقل معاً، وفي ذلك مبالغة في الطلب، وهي في الوقت نفسه تعبر عن وجدان المتكلم وانفعاله بالمعاني التي يريد إن يسقطها على المخاطب فيبلغ هدفه. وهدف الرسول ﷺ في حديثه هذا توبيخ وحشي هذا، وإلزامه الحرج على جرمه الكبير. كما إن الاستفهام بـ(هل) في هذا الموقف يكون " أدل على الطلب والمبالغة فيه والحض عليه " [6].

وخاطب رسول الله، في الحديث الثالث، أصحابه بألطف أنواع الخطاب وهو الاستفهام المتضمن معنى الأمر، وهو ابلغ من صيغة الأمر، فهو فضلاً عما فيه من تعبير مؤدب، لأنه يترك المخاطب بالخيار بين ان يفعل وان لا يفعل، فيه مبالغة في الطلب وإغراء بالعمل به[7].

---

(1) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم: 265 .
(2) ينظر، دلائل الإعجاز: 134 ؛ دلالات التراكيب: 226 .
(3) عقود الجمان: 180 .
(4) التعبير القرآني: 135 .
(5) لمزيد من الأحاديث بالصيغة نفسها ينظر فتح الباري: 334/6 ؛ 177/7 .
(6) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد حسنين أبو موسى: 296 .
(7) المعاني في ضوء أساليب القرآن: 184 .

وكل هذه اللطائف البلاغية كانت مقصد رسول الله في استفهامه الذي تضمن طلب المبايعة على عدم الإتيان بالكبائر وهي الإشراك بالله، والزنا، والسرقة، فإذا بايعوا على ذلك طواعية من دون ان يؤمروا بذلك كان التزامهم اشد، وإقامة الحجة عليهم ابلغ، لأنهم قد بايعوا من دون ضغط او أكراه. كما ان الأمر بصيغة الاستفهام يخلو من معنى الاستعلاء الذي قد يشعر به المأمور تجاه الآمر، وهذا عامل نفسي له أثره في اتخاذ القرار والثبات عليه[1].

12- النهي

ان النهي عن الفعل بأسلوب الاستفهام ابلغ من صيغة النهي المعروفة لما فيه من لطف، ومنع حق الاختيار للمخاطب، وعدم إشعاره بالاستعلاء والإلزام مما يدعوه الى الامتثال للطلب عن رضا وقناعة.

من ذلك قوله ﷺ لأعرابي سأله عن ضالة الإبل فأجاب منفعلاً: " ما لَكَ ولها؟ معها حِذاؤها وسِقاؤها، تَرِدُ الماءَ وتأكُلُ الشّجَرَ " [2].

وقال ﷺ:

" بِمَ [3] يَضرِبُ أحدُكم امرأتَهُ ضَرْبَ الفَحلِ ثم لعله يُعانِقُها " [4].

جاء نهي رسول الله للأعرابي عن اخذ الإبل، في الحديث الأول، بصيغة الاستفهام، بمعنى لا تأخذها لاستغنائها عن الحفظ والملتقط، بما ركب في طباعها من الجلادة على العطش وتناول المأكول بغير تعب.

والتعبير بـ(مال) يصور إثارة التعجيب الى مداه في الأسلوب[5]، وهذا ما يبدو من حديث رسول الله، فإنه يعجب من سؤال السائل عجباً مشوباً بالنهي والزجر، لكن هذه المعاني خف وقعها على السائل عندما حملتها اليه صيغة الاستفهام.

ونهى ﷺ، في الحديث الثاني، عن ضرب المرأة بأسلوب الاستفهام وأداته (ما) سبقها حرف الجر، أي لا يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل، ومما يعزز هذه الدلالة ورود الحديث بصيغة النهي في رواية أخرى[6].

ولكل صيغة دلالتها، فالأوجه التعبيرية المتعددة انما هي صور لأوجه معنوية متعددة[7]، فإذا ورد الحديث بأسلوب النهي الصريح فلأن الموقف كان يتطلب ذلك.

---

(1) للاستزادة في هذا المعنى ينظر، فتح الباري: 106/10 ؛ 284/12 .
(2) نفسه: 101/5 .
(3) ان حرف الجر وجه الإبهام الذي في (ما) الاستفهامية والعموم في موضوع السؤال الى شيء شيء من التحديد والتخصيص، فالاستفهام موجه الى الوسيلة أي وسيلة تحديد الموضوع .
(4) فتح الباري: 568/10 .
(5) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم: 260 .
(6) ينظر فتح الباري: 378/9 .
(7) معاني النحو: 9/1 .

والموقف هنا تطلب استفهاماً متضمناً معنى النهي، ليكون الوصول الى حقيقة الإجابة من السامع نفسه، ولعل ذلك ابلغ في التأثير والاستجابة، هذا فضلاً عن ان صيغة الاستفهام يمكن ان يترشح منها معان أخرى تعضد معنى النهي، كالتعجب من حال هذا الزوج الذي يفعل ذلك فيحس بأن عمله مشين فيرعوي ويكف عنه، وقد يلمح من صيغة الاستفهام أيضاً الزجر والتأنيب. ولاشك ان التعبير النبوي يسعى دائماً الى ان يوظف الصور التي من شانها ان تبعث في الكلمات إيحاءات جديدة تثير أحاسيس وجدانية مختلفة، كما فعل في الاتيان بـ(ضرب الفحل) مشبهاً به للمشبه (الرجل الذي يضرب امرأته) ليبعث على الاشمئزاز والتنفير من عمل يلحق الاهانة بأسمى العلاقات الإنسانية[1].

13- التسوية

ورد معنى التسوية بأسلوب الاستفهام في عدد قليل من الأحاديث الشريفة، مقترناً فيها بـ(لا أبالي او لا يبالي) [2]، او بـ(لا ادري) [3]، ولم أجده مقترناً بسواء. من ذلك قوله ﷺ:

" لَيَأتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ لا يبالي المرءُ بما أَخَذَ المالَ، أمِن الحَلالِ أم من الحرام؟ " [4].

وقال:

" الناسُ يصعَقونَ يومَ القيامةِ فأكونُ أولَ مَن يُفيقُ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائمِ العرشِ، فلا ادري أفاقَ قبلي أم جُوزِيَ بصَعقةِ الطُّورِ؟ " [5].

لقد بدأ الرسول الكريم حديثه الأول بالجملة الفعلية المؤكدة إشارة الى وقوع ذلك المحذور لا محالة، ثم أعقبها بهمزة الاستفهام مع (أم) المعادلة، وهذه الصيغة تفيد التسوية لدى المرء بين مصدر المال من جهة الحلال او الحرام، فكلاهما سواء عنده، وفي هذا خروج المسلم عن أحكام الشريعة الإسلامية، لذلك أراد رسول الله بصيغة التسوية معاني ابعد، منها ان يوصل تحذيره للمسلمين من الوقوع في هذا الخطأ، وذمه لمن تسول له نفسه كسب المال الحرام لئلا يفتتن غيره بذلك.

والاستفهام بالهمزة و(أم) المعادلة أفاد التسوية أيضاً، في الحديث الثاني، فقد أراد النبي الكريم من خلاله ان يخير بفضل نبي الله موسى عليه السلام، وذلك انه عندما يفيق من صعقته يوم القيامة يرى موسى عليه السلام آخذاً بقائمة من قوائم العرش، فسواء أكان قد

(1) ينظر المعنى نفسه: فتح الباري: 10/204-205 .
(2) ينظر: فتح الباري: 4/392 ؛ 11/405 .
(3) ينظر نفسه: 6/531 ؛ 13/210 .
(4) نفسه: 4/392 .
(5) نفسه: 6/531 .

أفاق قبل نبينا ﷺ فهي فضيلة ظاهرة له، وان كان قد حوسب بصعقته يوم الطور في حياته الدنيا فلن يصعق، فهي فضيلة ظاهرة له أيضاً. فالحالتان سواء في أنهما فضيلتان كبيرتان لنبي الله موسى عليه السلام [1]. وهذا ما أراد النبي الإخبار به عن طريق أسلوب الاستفهام المثير لانتباه المخاطب وإشراكه في فكر المتكلم ووجدانه.

14- **الوعيد**

ويخاف رسول الله على أمته من العذاب ان لم يستمسكوا بالعروة الوثقى، لذا حملت بعض أحاديثه الشريفة معنى الوعيد والتخويف بصيغة الاستفهام، ليرتدع من تسول له نفسه فعل ذلك. من ذلك قوله ﷺ:

" يُجاءُ بالكافر يومَ القيامةِ فيُقال له: أرأيتَ لو كان لك مِلءُ الأرض ذهباً أكنتَ تَفتَدي به؟ فيقول: نعم. فيُقال له: قد كنتَ سُئِلتَ ما هو أيسَر من ذلك " [2].

وقوله أيضاً:

" أما يَخشى أحدُكم إذا رَفَعَ رأسَهُ قَبلَ الإمامِ أن يجعلَ اللهُ رأسَهُ رأسَ حِمارٍ..." [3].

ان بناء الحديث على الحوار بين الكافر وربه يوم القيامة، في الحديث الأول، وعلى الاستفهام المراد به الاعتراف والإقرار، لدليل حي على الوعيد وبيان العاقبة، فقد أراد الرسول الكريم ان يخاطب عن طريق السؤال والجواب عامل الخوف الذي يؤثر في الإنسان أكثر مما يؤثر فيه عامل آخر[4]، فهو يخاطب المشاعر والعواطف والانفعالات، لخلق التأثير من اجل توجيه الإنسان نحو توحيد الله وعبادته والعمل بأوامره، فينال ثواب ذلك في آخرته.

وتوعد رسول الله، في الحديث الثاني، الذي يرفع رأسه في الصلاة قبل الإمام بأن يجعل الله رأسه رأس حمار. ولقد خص ﷺ الرأس بالوعيد لأن الجناية وقعت به[5]. ان التعبير النبوي لا يحمل على الحقيقة[6]، ولكنه أسلوب قصد به التوبيخ مقروناً بالتخويف من أمر يعد خروجاً عن السنة المتبعة. وهكذا ينتقي الرسول الأسلوب المؤثر الملائم للمضمون زيادة في التنفير من الأمر المرفوض.

---

(1) نفسه .
(2) نفسه: 488/11 .
(3) نفسه: 232/2 .
(4) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم: 46 .
(5) فتح الباري: 233/2 .
(6) اختلف في معنى الوعيد في الحديث فقيل: يحتمل ان يرجع ذلك الى أمر معنوي، فأن الحمار موصوف بالبلادة فأستعير هذا المعنى الجاهل بما يجب عليه من متابعة الإمام . ويحتمل ان يراد بالتحويل المسخ او تحويل الهيئة الحسية او المعنوية او هما معاً . ينظر شرح الكرماني: 74/5 ؛ فتح الباري 233/2-234 .

15- التقريع والتبكيت

وفي هذا المعنى وردت الأحاديث الآتية:

وقف النبي ﷺ على قَليبِ بدر[1] فقال:

" هل وَجدتم ما وَعَدَ ربُّكم حقاً؟ 000 "[2].

وقال ﷺ حاكياً عن يوم القيامة:

" يَقبِضُ اللهُ الأرض، ويَطوي السماوات بيمينِهِ، ثم يقول: أنا المِلِكُ، أين مُلوكُ الأرض؟ "[3].

ان مبلغ الرسالة، في الحديث الأول، ليعلم حقاً ان الكفار قد وجدوا العذاب الذي وعدهم ربهم به، وهو يعلم أنهم موتى لا يجيبون، ولكنه أراد بسؤاله ﷺ التذكير والتنبيه على ضلال الطريق، وبيان عاقبة المعاندين الكفار وتقريع من يسلك سبيلهم، وهذه الشدة في التبكيت والتقريع تستلزم قوة في التعبير، لذا استعملت (هل) دون (الهمزة) لما في استعمالها من دلالة أقوى وآكد في الاستفهام[4].

أما الاستفهام، في الحديث الثاني، الذي يحكي ما يقوله رب العزة يوم يقبض الأرض وما عليها، فلا يراد به المعنى الحقيقي، فالله عز وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولكنه أراد به التقريع والتبكيت بهؤلاء الملوك الذين ادعوا الملكية في الأرض، وانشغلوا بالسلطان ولم يعملوا لآخرتهم، فها هو ملك الملوك – سبحانه وتعالى – يسألهم تقريعاً وتبكيتاً، وفي هذا وعيد وتخويف لهم ليتعظوا[5].

16- التفجع والتحسر

ورد هذا المعنى في الحديث الشريف، وغرضه توجيه المسلمين نحو العمل الصالح في حياتهم الدنيا لينالوا ثواب الآخرة. من ذلك قوله ﷺ:

" إذا وضِعَتِ الجَنازةُ واحتَملَها الرِجالُ على أعناقهم، فإن كانت صالحةً قالت: قدِّموني، وان كانت غيرَ صالحةٍ قالت: يا وَيلَها، أينَ يَذهبونَ بها؟ يَسمعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلا الإنسان، ولو سَمِعَهُ صَعِقَ "[6].

إن الصرخة التي تطلقها النفس الشريرة في هيئة سؤال لا يراد به دلالته الحقيقية، وهي الاستفهام عن المكان، ولكنه يدل على معنى ثان ألا وهو التفجع

---

(1) القليب: بئر قرب بدر، وكان قد طرح فيه قتلى بدر من الكفار من رؤوساء قريش .
(2) فتح الباري: 383/7 .
(3) نفسه: 708/8 .
(4) التعبير القرآني: 135 .
(5) ينظر المعنى نفسه في فتح الباري: 48/2 .
(6) اللسان: 266/14 .

والتحسر، او الاياس، كما أطلق عليه الزركشي[1]. ومما يعزز هذه الدلالة في سياق الحديث تعبير (يا ويلها) وهو نداء غير العاقل، وهذا يوحي بالتحسر واليأس، كما ان لفظ (ويل) بمعنى العذاب او الهلاك[2] هو الآخر يعمق معنى التفجع والتحسر.

(1) البرهان: 343/2 .
(2) اللسان: 266/14 .

17- **التبشير**

وقد يسلك رسول الله سبيل الاستفهام ليبشر المسلمين بما يسرهم عاجلاً أم آجلاً، يقيناً منه إن هذا السبيل هو أجدى في الإثارة، وأوقع في تقبل البشارة. من ذلك قوله ﷺ لأصحابه:

" أترضون أن تكونوا رُبْعَ أهلِ الجنة؟ قالوا: بلى. قال: أفلا ترضونَ أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنة؟ قالوا: بلى. قال: فو الذي نفسُ محمّدٍ بِيدِهِ، إنّي لأرجو إن تكونوا نصفَ أهلِ الجنةِ " [1].

فقد ذكر النبي ﷺ البشرى بالتدريج فبدأ بالربع ثم الثلث ثم النصف ليكون أعظم لسرورهم. وأعقب الاستفهام بالجملة الخبرية المبدوءة بالقسم، من اجل تحقيق الخبر وتوكيده، يقول السيوطي: " ومن عادة العرب القسم إذا أرادت ان تؤكد أمراً " [2].

18- **الاستبطاء**

وهو عد الشيء بطيئاً في زمن انتظاره، وقد يكون محبوباً منتظراً [3].

وقد استبطأ رسول الله يوم عائشة، في مرضه الذي مات فيه، فقد كان ﷺ يسأل:

" أين أنا اليومَ؟ أين أنا غداً؟ " [4].

فسؤاله ﷺ عن قدر ما بقي الى يوم السيدة عائشة (رض) ليكون في بيتها يعد استبطاءً لذلك اليوم، وإحساساً بالزمان، الذي يتباطأ في فترات الضجر والانتظار [5].

19- **التمني**

وقد يخرج الاستفهام في الحديث الشريف الى معنى التمني. ومثاله ان النبي ﷺ اشرف على أُطُمٍ من آطامِ المدينة ثم قال:

" هل تَرَونَ ما أرى؟ إني لأرى مواقعَ الفِتَنِ خِلالَ بُيوتِكم كمَواقِعِ القَطْرِ " [6].

20- **وقد يجي الاستفهام في الحديث الشريف عطى طريق تجاهل العارف، تلطفاً في قسر الانتباه وإسداء البشرى بمقبل سيكون، او النصيحة من خطر قد يدهم.**

فمن الأول قوله ﷺ لجابر بن عبد الله رضي الله عنه:

" هل لكم من أنماط؟ [7] قال جابر: وانى يكون لنا الأنماط؟ قال:

---

(1) فتح الباري: 644/11 .
(2) الإتقان: 133/2 .
(3) مواهب الفتاح – شروح التلخيص: 306/2 .
(4) فتح الباري: 326/3 .
(5) لحظة الأبدية، دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، سمير الحاج شاهين: 5 .
(6) فتح الباري: 117/4، وينظر ص 183 من البحث .
(7) النمط: بساط له حمل رقيق . اللسان (نمط): 295/9 .

" أما وانها ستكون لكم الأنماط ". فكانت كما قال [1] .

ومن الثاني قوله ﷺ:

" يا عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو، كيفَ بكَ إذا بقيتَ في حُثالةٍ مِنَ الناسِ 000 " [2].

فتساؤل الرسول، في الحديث الأول، (هل لكم؟) كان تمهيداً الى التبشير بما سيكون، وهذا من بلاغة التعبير النبوي.

والاستفهام في الحديث الثاني (كيف بك؟) نصح وتحذير من خطر داهم يتحسسه ﷺ بإحساس النبوة فيسوقه تعبيراً منطقياً مقنعاً، وأسلوباً يخاطب المشاعر الإنسانية، لينقذ به عبد الله بن عمرو مما سيحل به لو طالت به الحياة.

وهكذا رأينا ان الاستفهام النبوي كان أداة توصيل لمختلف المعاني والأغراض، وان هذه المعاني التي نجد في التقاطها ليست مما يجهر به التعبير النبوي، وإنما كان السياق يشير ويلفت اليها، وهذه في ذاتها قيمة بلاغية كبيرة، " فالبليغ هو الذي قرأ ما قبل الاستفهام وما بعده، ونظر في نفسه فحكم الحكم الحق العادل " [3] .

ان قولنا ان الاستفهام للإنكار او التقرير او التعجب او غيره، ليس في حقيقته تحديداً دقيقاً للدلالة، وإنما هو إشارة عامة الى المرمى العام من السياق، لأن الدلالة ذات مذاق خاص يختلف عن كونه مجرد الإنكار او التقرير او التعجب. ولابد أن المخاطبين قد أدركوا المعنى المقصود وقتئذٍ، لأنهم سمعوه من في الرسول الكريم مقترناً بالنغمة الصوتية المصاحبة للمعنى، ولا يخفى ما للحن التنغيمي المصاحب للكلام من دور في إخراج الاستفهام الى المعنى الذي يدل عليه[4] .

---

(1) فتح الباري: 780/6 .
(2) نفسه: 744/1 .
(3) البلاغة العربية في ثوبها الجديد: 95 .
(4) دراسات في علم اللغة، د. كمال بشر: 24 .